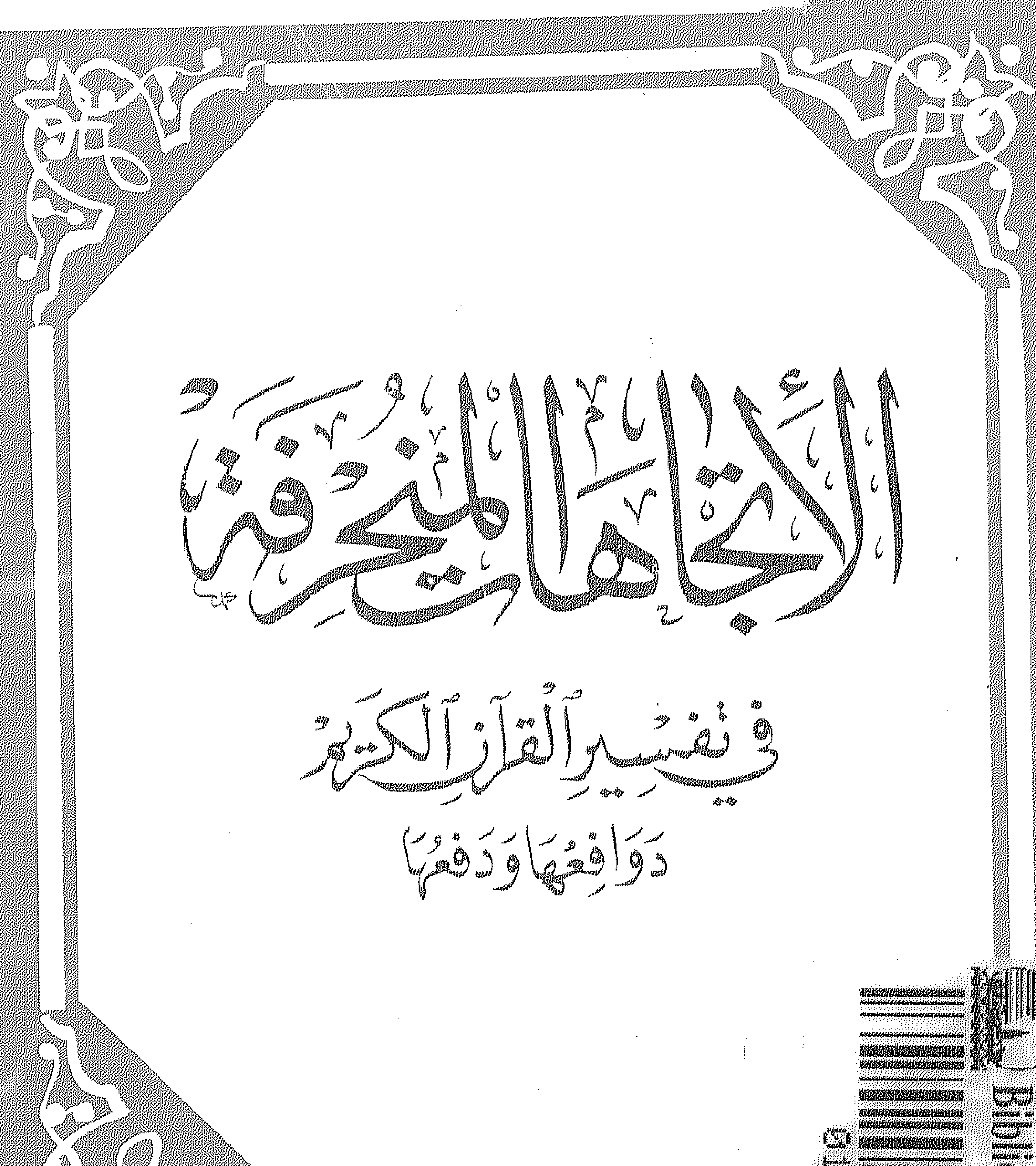
دكتور محمد حسين الذهبي



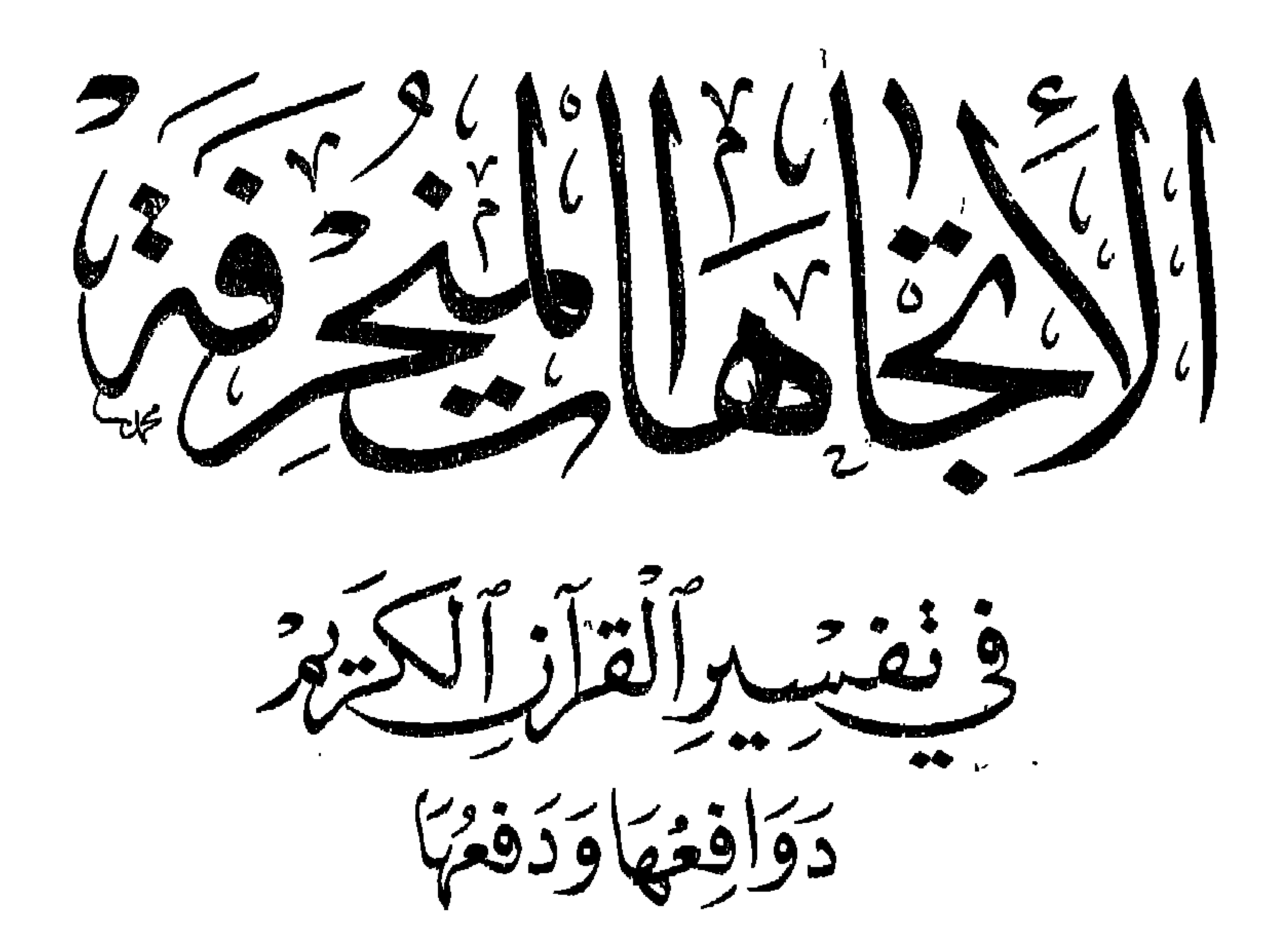
الاتجاهات المنحرفة

في تفسير القرآن الكريم

دوافعها ودفعها

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

دكتور محمد حسين الذهبي



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

شرف كبير لهذا القلم المتواضع أن يقدم عالما كبيرا جليلا ، وأستاذا فاضلا غنيا كل الغنى عن التعـريف به ، فضلا وعلما وأدباً وخلقا . . عالما يعتز بعلمه . . ومؤمنا غيورا على دينه لا تأخذه فى الحق لومة لائم . . ولا يضن بقلمه ليدفع به عن الإسلام تطاولات المتطاولين عليه ، ومناوشات المناوشين له ، وليشهره فى مواجهة الأقلام الزائفة ، سواء أكان حملتها ممن ينتمون الى الاسلام من واقع شهادات مواليدهم ، أم ممن لا ينتمون الى الاسلام،ولا تسيل أقلامهم إلا حقداً على الإسلام ، ولا تبذل أفكارهم إلا افتراء عليه . .

إن القضية التى عرض لها أستاذنا فضـــيلة الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف وشئون الأزهر ، قضية لها أهميتها ، بل لها خطورتها ، لأنها قضية تتناول الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم ، وتكشف عن داوفعها ، وتدمغها . . تتناولها فى جرأة بلا تردد ، وفى شجاعة بلا مجاملة ، وفى نزاهة بلا محاباة . .

إن البعض منا لا يزال يعترف لكتب التفسير بشيء من القداسة ، وننسى أن المفسرين بشر غير معصومين ، وأن التفاسير كانت مجالا واسعا لتسلل الآراء التى تفسد الذوق القرآنى ، اما بدافع من الجهل ، واما بدافع من الهوى ، وكانت مرتعا خصبا لاحتواء الآراء التى تتعصب للمذهبية وتتشيع للطائفية ، ولقد وجد المبشرون الحاقدون ، والمستشرقون ذوو الأهواء ، وجدوا فى التفاسير - أو بمعنى أدق - فى بعضها ضالتهم المنشودة فألفوا الكتب وسطروا المقالات لينالوا من كتاب الله عز وجل . .

إن أستاذنا الدكتور الذهبى يعتبر من الطلائع الذين عنوا عناية كبرى بتنقية التفاسير مما شابها ، ولقد كانت رسالته التى تقدم بها لنيل العالمية من درجة أستاذ منذ أكثر من ثلاثين عاما « التفسير والمفسرون » فى ثلاثة أجزاء من الدراسات الجديرة بكل تقدير . .

وكان التقدير الكبير للمؤلف الراحل المغفور له الدكتور محمد حسين الذهبى أن نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى أسابيع معدودة ، ويشاء الله العلى القدير الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه - أن يرحل المؤلف عن هذه الدار والكتاب فى طريقه الى الطبع ، وقد كان وقع المأساة شديدا على كل نفس . . وفى غضون هذه المأساة لم يكن لائقا أن يظهر الكتاب فى السوق . . أما وقد مضى على المأساة وقت طويل . . فليس من الحكمة أن يحجب العلم عن الناس ، بل وليس من الوفاء للعالم الجليل أن نتعمد نسيان علمه الفياض بالغيرة على دين الله والاخلاص لعقيدة الاسلام . . .

رحم الله الفقيد . . ونسأله تعالى أن ينفع المسلمين بعلمه . . وأن يجزيه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء . .

وبعد . . فلا أظن هذه الكلمات السريعة توفى هذه الدراسة التى بين أيدينا حقها من التقدير ، ولنترك للقارىء أن يتلافى هذا التقصير بمشاعره وأحاسيسه . .

والله المـوفق . .

محمد عبد الله السمان

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ورسوله الذى شرفه ربه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .. كتاب يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيـم .

... وبعد ، فقد قرأت فى كتب التفسيـر قديمها وحديثها ما شاء الله أن أقرأ .. قرأت فيها على اختلاف مناهجها ، وتباين اتجاهاتها ، وتلون أساليبها ، فرأيت الكثير منها لا يخلو من اتجــاهات منحـرفة فى فهم النص القرآنى ، وتأويلات باطلة ، بعضها متكلف مرذول ، يمجه الذوق السليم ، وتأباه بلاغة القرآن الكريم ، وبعضها لا يتفق وقواعد الدين ، وربما خرج بصاحبه إلى زمرة من ليســوا بمسلمين !!

وقد رأيت أن أتتبع هذه الانحرافات فى كتب التفسير على اختلاف عصورها ، وتباين مذاهبها واتجاهاتها ، ثم أجمع من هذه الأفكار المنحرفة ، والتأويلات المحرفة لكتاب الله مثلا عدة ، أرجعها إلى أسبابها ودوافعها التى دفعت بقائليها الى أن يسودوا بها

صحائف تفاسيرهم ، ثم أدفع هذه الأباطيل ، وأزيف هذه السخافات والأضاليل ، التى تروج على بعض الأغمار الجهلة ، وكثيراً ما يخدع بها من أخذوا من العلم نصيبا لا يحميهم من هراء المبتدعة ونزغات المضللة .

وحسبى أن أكون قد دافعت بهذا عن كتاب رب العالمين ، ونفيت عنه عبث العابثين وأباطيل الملحدين ، وبينت لمن خدعوا بهذه الاتجاهات المنحرفة ، والمذاهب الفاسدة ، حقيقة - هذه الاتجاهات والمذاهب ، وعرفتهم أسبابها ودوافعها ، حتى يأخذوا حذرهم فلا يصدقوها ولا يفتنوا بها ، وحتى يرجعوا إلى كتاب ربهم فيفهموه على صفائه ونقائه ، ويعملوا به على بينة من هديه وضيائه ، فيسعدوا به كما سعد أسلافهم ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الفلاح والفوز المبين .

وقد رتبت هذا البحث على مقدمة وتسع مقالات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة فى :
٤ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ هـ
٢٠ أغسطس سنة ١٩٦٦ م

محمد السيد حسين الذهبى

***

تمهيد

المبحث الأول

فى تدرج التفسير فى مرحلتيه

أولا ـ مرحلة الرواية :

نزل القرآن الكريم على نبى أمى وقوم أميين لا يملكون من وسائل التعبير إلا ألسنتهم ، ولا من أوعية المعرفة غير قلوبهم ، فلا كتابة ولا كتاب ، ولكنه اللسان الطلق الفصيح ، والقلب الواعى الذكور .

وكانت للعرب وقت نزول القرآن فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروبا من الوصف ، وأنواعا من الحكم ، وطائفة من الأخبار والأنساب . وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب . .

وجريا على سنة الله تعالى فى إرسال الرسل ، نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم فى كلامهم : « **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** »[1] فاستعمل القرآن الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، على نمط العرب فى كلامهم ، غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربى بمعانيه الرائعة التى افتن فى غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ، تحقيقاً لاعجازه ولكونه : « **من لدن حكيم عليم** »[2] .

وكان طبيعياً أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلا بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان : « **إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** »[3] .

وكان طبيعيا أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة بالنسبة لظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلا ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه ، لأنه عليه الصلاة والسلام عليه البيان كما أن عليه البلاغ ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** »[4] .

---

(١) إبراهيم : ٤
(٢) النمل : ٦
(٣) القيامة : ١٧ ــ ١٩
(٤) النحل : ٤٤

ولقد اختلف العلماء فى المقدار الذى فسره النبى صلى الله عليه وسلم : فمنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معانى القرآن الكريم كما بين لهم ألفاظه ، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية[٥] ؛ ومنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل ، وعلى رأس هؤلاء الخويى والسيوطى[٦] وكل من الفريقين يؤيد ما ذهب إليه بأدلة لا نطيل بذكرها ولا أظنها أدلة مسلمة .

والذى تميل إليه النفس : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الكثير من معانى القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، وأنه لم يبين لهم كل معانيه ، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس رضى الله عنهما فيما يرويه عنه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (ج ١ ص ٢٥) قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » .

وبدهى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب ، لأن القرآن نزل بلغتهم ،

---

(٥) انظر مقالة ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير ص ٥ .

(٦) انظر ما نقله السيوطى عن الخويى فى الإتقان جـ ٢ ص ١٧٩ وما ارتضاه السيوطى فى الإتقان جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام الى معرفته ، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ، لأنه لا يخفى على أحد ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وحقيقة الروح وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه ، وانما فسر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التى أخفاها عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم ، وفسر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع الى اجتهادهم ، كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق . . وما الى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به .

وإذن فبعض ما يروى عن الصحابة فى التفسير مأخوذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعضه ـ وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد ـ قالوا فيه برأيهم ، وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم ، مستعينين فى ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ، والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها ، وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم ، ثم بقوة الفهم وسعة الادراك كما قال على رضى الله عنه ـ لما سئل : هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله ؟ ـ «لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن . . . »[٧] .

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو

---

(٧) البخارى ، فى باب : الجهاد جـ ٤ ص ٦٩ .

بالواسطة ، وبما شاهدوه من أسباب النزول ، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد ، كعلى ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأُبَىّ بن كعب .

ثم جاء عصر التابعين ، فكان منهم من تصدى لتفسير القرآن الكريم ، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابة ، وزاد على ذلك برأيه واجتهاده بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوه فى التفسير ، وزادوا عليه ـ أيضا ـ برأيهم واجتهادهم بمقدار ما زاد من غموض . وهكذا ظل التفسير يتزايد طبقة بعد طبقة ، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها ، إلى أن جاءت مرحلة التدوين .

***

ثانياً ـ مرحلة التدوين :

وتبدأ هذه المرحلة من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى ، وفيها خطا التفسير خطوات متعددة ، لكل منها سماتها ومميزاتها :

فأول خطوة بدأت : كانت مع ابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أبواب الحديث متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب ، ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روى فى

الأمصار من تفسير منسوب الى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو الى الصحابة ، أو الى التابعين . ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ . . وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، وكان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعا للتفسير على أنه علم مستقل قائم بذاته .

ثم جاءت **الخطوة الثانية** : وفيها انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما قائما بنفسه ، فوضع التفسير لكل آية من القرآن ، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف ، وتم هذا العمل على أيدى جماعة من العلماء منهم : ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . . وكل هذه التفاسير مروية بالاسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وليس فيها شىء يذكر فى التفسير أكثر من التفسير المأثور اللهم إلا ابن جرير الطبرى فانه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الاعراب إن دعت اليه حاجة ، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من النص القرآنى .

ثم جاءت **الخطوة الثالثة** : وفيها لم يخرج التفسير عن حدود التفسير بالمأثور ، ولكنه خرج عن طابعه المألوف من قبل ، وهو تدوين المأثورات بأسانيدها ، فوجدنا من العلماء من اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون

أن يسندوها لقائليها ، فدخل الوضع فى التفسير ، والتبس الصحيح بالعليل ، وكان هذا مبدأ ظهور الوضع فى التفسير وتطرق الروايات الاسرائيلية اليه .

ثم جاءت الخطوة الرابعة : وهى أوسع الخطا وأفسحها . . امتدت من العصر العباسى إلى يومنا الحاضر . . فبعد أن كان التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة ، وجدناه يتجاوز بهذه الخطوة الى تدوين تفاسير اختلط فيها الفهم العقلى بالتفسير النقلى ، وكان ذلك على تدرج ملحوظ ، فقد بدأ أولا على هيئة محاولات فهم شخصى وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولا ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ، ودلالة الكلمات القرآنية . . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة ، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم .

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى والعقدى ، ودون فيها من الكتب ما شاء الله أن يدون ، وظهر التعصب المذهبى قائماً على قدمه وساقه فى العصر العباسى ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة لها . . وكان من نتيجة ذلك كله ، أن امتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى ، وصار أظهر شيء فى هذه الكتب هو الناحية

العقلية ، وان كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول ، أو بغير ذلك من المأثور ، كما كان من نتيجته ـ أيضا ـ تحكم المعتقدات المذهبية فى عبارات القرآن تحكما كثيرا ما يخرج بالنص القرآنى عن معناه المراد . . وأخيرا وجدنا كل من برع فى فن من الفنون يغلب على تفسيره ـ بصورة واضحة ـ فنه الذى برع فيه : فالنحوى : أكبر همه الاعراب وسرد مسائل النحو وفروعه ، كأبى حيان فى تفسيره « البحر المحيط » .

وصاحب العلوم العقلية : جل عنايته بأقوال الحكماء والفلاسفة وذكر شبههم والرد عليها ، كالفخر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » .

والفقيه : مبلغ همه واهتمامه مسائل الفقه وتفريعاتها وذكر أدلتها ، كالجصاص وأبى بكر بن العربى .

وصاحب التاريخ : يكثر من ذكر القصص وأخبار من سلف ، وكثيرا ما يخلط الصحيح منها بالأساطير والخرافات ، كما فى تفسير الثعلبى والخازن . .

وأصحاب المذاهب الدينية والمواجيد الصوفية : ركزوا فى تفاسيرهم على ما يهمهم من تأييد المذهب أو شطحات التصوف . . وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه ، أو يشهد لمذهبه . .

ولقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية فى كتابة التفسير ، وراجت فى بعض العصور رواجا عظيما، كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن

كل العلوم ما ظهر منها ومالم يظهر ، كأن هذا ـ فيما يبدو ـ وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن . وفى الحق أن هذا غلو منهم ، واسراف يخرج بالقرآن عن مقصده الذى نزل من أجله ، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه .

. . هذا ولا يفوتنا أن نذكر أنه قد وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير ، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتعددة ، كابن القيم ، الذى أفرد كتابا فى أقسام القرآن ، وأبى عبيدة ، الذى أفرد كتابا فى مجاز القرآن ، والراغب الأصفهانى ، الذى أفرد كتابا فى مفردات القرآن ، وأبى جعفر النحاس ، الذى أفرد كتاباً فى الناسخ والمنسوخ من القرآن ، وأبى الحسن الواحدى ، الذى أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن . . وغير ذلك من العلماء الذين قصدوا الى ناحية خاصة من نواحى القرآن وتناولوها بالدراسة والتأليف .

***

المبحث الثانى

فى مبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة فى التفسير والعوامل التى أدت اليها .

عرفنا فيما تقدم كيف تدرج التفسير فى مرحلتى الرواية والتدوين ، وعرفنا كيف انتهى التفسير المأثور الى حذف أسانيده وذكره مجردا عنها ، وكيف انتهى التفسير العقلى الى اخضاعه لميول شخصية ، ومذاهب عقدية وغير عقدية .

ولا شك أن انتهاء التفسير المأثور الى حذف أسانيده وذكره مجردا عنها ، فتح على المسلمين باب شر عظيم ، حيث مكن من تسرب الموضوعات والاسرائيليات الى التفسير ، فكثيرا ما وضع أصحاب المذاهب السياسية والعقدية ، وغيرهم من أصحاب الميول المختلفة والنزعات المنحرفة أقوالا فى التفسير ونسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى بعض من اشتهر بالتفسير من الصحابة ، ترويجا لمذاهبهم وتمكينا لبدعهم وأهوائهم ، ثم جاء من بعدهم فنقلوها عنهم فى تفاسيرهم - كما نقلوا غيرها من صحيح التفسير المأثور - من غير أن يتحروا صحتها ، وبدون ذكر أسانيدها ، فاغتر كثير من الناس بهذه التفاسير ، وظنوا كل ما فيها صحيحا ، كما ظنوا ما دس على التفسير من الاسرائيليات صحيحا كذلك .

ولقد كان من الممكن تلافى هذا الخطر لو ذكرت هذه الروايات بأسانيدها ، ولكن حذف الأسانيد ـ وللأسف ـ عمى علينا كل شيء !!

وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال ، فعلوا كما فعل ابن جرير الطبرى ، من رواية كل قول باسناده ، فهو وان كان لم يتحر الصحة فيما يرويه ، فقد أبرأ ذمته بذكر السند لكل رواية يرويها ، وكانوا يقولون : « من أسند لك فقد حملك » وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة ، لأن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول ، فكان الناس لا يعييهم معرفة قيمة المروى صحة وضعفا ، كما أن أحوال الرجال دونت لنا بكل دقة ومهارة فى كتب الرجال ، ومصنفات الجرح والتعديل ، فلا يعيينا نحن أيضا أن نعرف قيمة رجال السند ، ثم ننتهى من ذلك الى معرفة قيمة المروى عنهم .

ولا شك أيضا فى أن انتهاء التفسير بالرأى ، الى اخضاعه لميول شخصية ومذاهب عقدية وغير عقدية ، فتح على المسلمين باب شر خطير ، ولج منه أعداء الاسلام الى ما يهدفون اليه من إفساد عقائد المسلمين ، ودلف منه مبتدعة المسلمين الى ترويج بدعهم ، واقتحمه أشباه المثقفين بنظراتهم الكليلة ، وعقولهم العليلة ، ثم خرجوا على الناس بعبثهم وسخافاتهم التى يبرأ منها كتاب الله عز وجل !!

ولو أن هؤلاء جميعا حين خاضوا فى تفسير القرآن الكريم ، لم ينظروا إليه من خلال نزعاتهم وأهوائهم ، وراعوا قوانين التفسير التى لا يجوز تخطيها ، ما رأينا هذه الاتجاهات المنحرفة التى

لا تخضع إلا لمجرد الهوى والاستحسان .

وإذا أردنا أن نرجع الخطأ فى التفسير بالرأى الى دوافعه وأسبابه أمكننا أن نرد ذلك ـ فى الغالب ـ الى عاملين اثنين :

العامل الأول : أن يعتقد المفسر معنى من المعانى ، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقده .

العامل الثانى : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، وذلك بدون نظر الى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

فالعامل الأول ، ملحوظ فيه مجرد المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر الى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

والعامل الثانى ، ملحوظ فيه مجرد اللفظ ، وما يجوز أن يريد به العربى من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، والمخاطب ، وسياق الكلام .

والخطأ الذى يرجع إلى العامل الأول يقع على أربع صور :

الصورة الأولى : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته صواباً ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن مع أنه لا يدل عليه ، ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لا ينفى المعنى الظاهر المراد وعلى هذا يكون الخطأ واقعا فى الدليل لا فى المدلول .

وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية ، والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى ذاتها ، ولكنها غير مرادة ، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعنى ، وذلك مثل كثير مما

ذكره أبو عبدالرحمن السلمى فى حقائق التفسير ، فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية : ٦٦ من سورة النساء « **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ».. الآية ،نجده يقول ما نصه : اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها ، أو اخرجوا من دياركم : أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ... الخ[1] .

الصورة الثانية : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته صوابا ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به ، ويحمله على ما يريده هو ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل لا فى المدلول أيضا .

وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض الصوفية ، الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة فى حد ذاتها ، ومع ذلك فانهم يقولون : إن المعانى الظاهرة غير مرادة . وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون الى تفسير الباطنية ، ومن ذلك ما فسر به سهل التسترى قوله تعالى فى الآية : ٣٥ من سورة البقرة « ... **ولا تقرْبا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** » حيث يقول ما نصه : لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة ، وانما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره .. الخ[2] .

الصورة الثالثة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته خطأ ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لا ينفى الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا فى الدليل والمدلول معا .

---

(١) تفسير السلمى ص ٤٩ .

(٢) تفسير التسترى ص ١٦

وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعانى الباطلة ، وذلك كالتفسير المبنى على القول بوحدة الوجود ، كما جاء فى التفسير المنسوب لابن عربى عندما عرض لقوله تعالى فى الآية : ٨ من سورة المزمل : « **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا** » حيث قال ما نصه : واذكر اسم ربك الذى هو أنت ، أى أعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله . . . الخ[٣] .

الصورة الرابعة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته خطأ ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به ، ويحمله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ فى الدليل والمدلول معا .

وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع والمذاهب الباطلة ، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد الى معنى ليس فى اللفظ أى دلالة عليه ، كتفسير بعض غلاة الشيعة « الجبت والطاغوت » بأبى بكر وعمر ، وتارة يحتالون على صرف اللفظ عن ظاهره الى معنى فيه تكلف غير مقبول ، وذلك اذا أحسوا اللفظ القرآنى يصادم مذهبهم الباطل ، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ «إلى » فى قوله تعالى فى الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة : « **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** » بالنعمة ، ذهابا منه إلى أن « الى » واحد الآلاء بمعنى النعم ، فيكون المعنى : ناظرة نعمة ربها على التقديم والتأخير[٤] ، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله عز وجل فى الآخرة .

---

(٣) التفسير المنسوب لابن عربى جـ ٢ ص ٣٥٢ .
(٤) آمالى السيد المرتضى جـ ٢ ص ٢٨ .

وأما الخطأ الذى يرجع إلى العامل الثانى فهو يقع على صورتين :

الصورة الأولى : أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذى ذكره المفسر لغة ، ولكنه غير مراد ، وذلك كاللفظ الذى يطلق فى اللغة على معنيين أو أكثر . والمراد منه واحد بعينه ، فيأتى المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد ، وذلك كلفظ « أمة » فانه يطلق على معان ، منها : الجماعة ، والطريقة المسلوكة فى الدين ، والرجل الجامع لصفات الخير ، فحمله على غير الطريقة المسلوكة فى الدين فى قوله تعالى فى الآية : ٢٢ من سورة الزخرف : « **إنا وجدنا آباءنا على أمة** » غير صحيح وان احتمله اللفظ لغة . ولفظ « العين » الذى يطلق على معان كثيرة منها العين الباصرة ، والذهب ، والجاسوس ، وعين الماء ، اذا حمل على معنى آخر غير عين الماء فى قوله تعالى فى الآية : ١٨ من سورة الإنسان : « **عيناً فيها تسمى سلسبيلا** » يكون غير صحيح وان احتمله اللفظ لغة أيضا .

الصورة الثانية : أن يكون اللفظ موضوعا لمعنى بعينه ، ولكنه غير مراد فى الآية ، وانما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا ، فيخطىء المفسر فى تعيين المعنى المراد ، لأنه اكتفى بظاهر اللغة فشرح اللفظ على معناه الوضعى ، وذلك كتفسير لفظ « مبصرة » فى قوله تعالى فى الآية : ٥٩ من سورة الاسراء « **وآتينا ثمود الناقة مبصرة . . .** » بجعل مبصرة من

الإبصـــار بالعين على أنها حال من الناقة ، وهذا خلاف المراد ، اذ المراد : آية واضحة على صدق نبوته[٥] .

... وبعد فقد بينا كيف تدرج التفسير فى مرحلة الرواية ومرحلة التدوين ، وكيف انتهى به الأمر الى ظهور الاتجاهات المنحرفة فيه ، وبينا الدوافع التى دفعت ببعض المفسرين الى هذه الاتجاهات ، ونرى بعد هذا أن نفرد كل لون من ألوان هذه الاتجاهات بمقالة مستقلة نذكر فيها أسباب هذا الاتجـاه ، ونستعرض بعض أمثلته ، ثم نعقب على هذه الأمثلة بدفعها وبيان زيفها ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(٥) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٠ ـ ٢٤ .

مع الإخباريين والقصاص

● الاتجاه المنحرف فى التفسير للإخباريين والقصاص :

اشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص : منه ما يتعلق بأخبار الأنبياء مع أممهم ، ومنه ما يتعلق بأخبار الماضين ممن ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ، كقصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها . . .

واذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والانجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذلك على اختلاف فى الاجمال والتفصيل : فالقرآن اذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلا - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة والانجيل ، فنراه يقتصر على مواضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فلا يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، كما أنه لا يذكر - فى الغالب - أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث ، ولا يدخل فى تفاصيل الجزئيات ، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع ، وما يتعلق بموضوع العبرة .

واذا أخذنا موضوعا من الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن

والتوراة ، أو القرآن والانجيل ، وقارنا بين ما جـاء فى الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهرا جليا .

فمثلا قصة آدم وابليس ، ورد ذكر فى التوراة ، كما ورد ذكرها فى القرآن فى مواضع متعددة ، أطولها ما ورد فى سورة البقرة ، وما ورد فى سورة الأعراف ، وبالنظر فى الآيات المتعلقة بهذه القصة فى هاتين السورتين وغيرهما من سور القرآن نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ، ولا لنوع الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عن الأكل منها ، ولا بين أن الشيطان تقمص حية ودخل الجنة ليزل آدم ويغويه بالأكل من الشجرة ، كما لم يتعرض للبقعة التى هبط اليها آدم وزوجه وأقاما بها بعد خروجهما من الجنة . . . الى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفاصيل .

ولكن نظرة واحدة يجيلها الانسان فى التوراة يجد بعدها أنها قد تعرضت لكل ذلك وأكثر منه ، فذكرت أن الجنة فى عدن شرقا ، وأن الشجرة التى نهى آدم وزوجه عنها كانت فى وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة ، وشجرة الخير والشر ، وأن الذى خاطب آدم وحواء هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التى تقمصها ابليس بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وما انتقم به من حواء بتعبها هى ونسلها فى حبلها . الى آخر ما ذكر مما يتعلق بهذه القصة[1] .

واذا نحن أجلنا النظر فيما جاء فى الانجيل من قصص ورد ذكره فى القرآن ، وجدنا أن الانجيل يعنى بجزئيات لا يتعرض لها القرآن ، فقصة ولادة عيسى عليه السلام لم يتعرض القرآن فيها

(١) العهد القديم ؛ الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ ـ ٥

لنسب عيسى مفصلا ، ولم يعين على جهة التحديد المكان الذى ولد فيه ، ولا تعرض لكيفية ولادته ، ولا لغير ذلك من الجزئيات التى عرض لها الانجيل بالتفصيل[٢] .

ولما كانت النفس عادة تتشوق الى معرفة تفاصيل الحوادث وجزئياتها ، وجدنا من المسلمين في عهد الصحابة من كان يرجع إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار يسألونهم عن بعض جزئيات هذه الحوادث ، ولكن بقدر ما يرون أنه موضح للقصة ، ومبين لما أجمله القرآن منها ، ومن غير أن يخرجوا عن دائرة الجواز التى حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[٣] ويقوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : « آمنا بالله وما أُنزل إلينا » .. الآية [٤] .

وعلى هــذا فان الصحابة اذا أخذوا عن أهل الكتاب ، كانوا يصدقونهم فيما يتفق مع شريعتنا ، وكانوا يكذبونهم فيما لا يتفق معها ، وكانوا يتوقفون فيما يحتمل الصدق والكذب فلا يقطعون بصدقه لاحتمال أن يكون كذبا ، ولا يقطعون بكذبه لاحتمال أن يكون صدقا ، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، وبعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى اسرائيل ،

(٢) انظر : العهد الجديد : انجيل متى : الاصحاح الأول ص ١

(٣) البخارى فى باب : ما ذكر عن بنى إسرائيل .

(٤) البخارى فى باب : التفسير ـ والآية من سورة البقرة : ١٣٦

ومقدار سفينة نوح ، ونوع خشبها ، واسم الغلام الذى قتله الخضر . . . وغير ذلك مما يعد السؤال عنه قبيحا ومن قبيل تضييع الوقت فى غير فائدة .

. . ولكن هل بقى التحفظ فى رواية الاسرائيليات على ما كان عليه فى عهد الصحابة ؟

. . لا ، فقد جاء عهد التابعين ، وفيه كثرت الروايات الاسرائيلية فى التفسير ، ويرجع ذلك إلى كثرة من دخل من أهل الكتاب فى الاسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن ، من أحداث يهودية ، أو نصرانية أو غيرها ، فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير ـ كما يظنون ـ بما هو موجود عند اليهود والنصارى فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة ، والروايات التى هى أقرب إلى الخرافة ، ومن هؤلاء : مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ والذى نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما فى كتبهم[٥] .

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات ، ونقل الأخبار وأفرط فى ذلك ، حتى أصبح لا يرد قولا ، ولا يتحرج من أن يلصق بالقرآن من الروايات والقصص مالا يتصوره عقل ، وما لا يجوز أن يفسر به كتاب الله .

ولقد استمر هذا الشغف بالإسرائيليات ، والولع بنقل الأخبار

---

(٥) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٥٦٨

التى يعتبر الكثير منها نوعا من الخرافة ، حتى وجدنا من كتب التفسير على اختلاف العصور ما هو ملىء بهذا القصص على ما فى بعضه من منافاة لعصمة الأنبياء ، الأمر الذى كاد يصد الناس عن النظر فى هذه الكتب ، والذى جعلهم لا يثقون بما فيها من الروايات ولو كان صحيحا .

ولعل أبرز من عرفناه يعنى بالاسرائيليات من المفسرين : أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى كتابه « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » [٦] ، وعلاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن خليل الشيحى [٧] البغدادى المعروف بالخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ فى كتابه « لباب التأويل فى معانى التنزيل » .

كلا الرجلين يعنى فى تفسيره ـ بصورة ظاهرة ـ بذكر الاسرائيليات ، وكلاهما ينقل الكثير منها على ما فيها من بعد عن الحقيقة ، وأحيانا يتعقبان بالنقد بعض ما يذكران من ذلك ، وأحيانا لا يكون منهما نقد يكشف زيف ما يرويان ولو كان مخلا بعصمة الأنبياء .

ولست أرى دافعا دفع بهذين المفسرين الى حشو كتابيهما بهذه الروايات إلا حبهما للقصص ، وشغفهما برواية الاسرائيليات ولو كان فيها الأكاذيب .

---

(٦) هذا التفسير مخطوط ومنه أربعة أجزاء فى مكتبة الأزهر ، تبدأ بأول القرآن ، وتنتهى عند آخر سورة الفرقان .

(٧) الشيحى ـ بالحاء المهملة ـ نسبة الى بلدة اسمها «شيحة» من أعمال حلب

فالثعلبى : كان واعظا وشأن الواعظ - فى الغالب - أن يغلب عليه الجانب القصصى فيما يلقيه على الناس وفيما يكتب لهم ، ولقد لمسنا هذه الظاهرة فى الثعلبى بصورة واضحة فى كتابه « العرائس » الذى ألفه فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

والخازن : كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق ، وقد لقب بالخازن من أجل ذلك . ومن يقوم على خزانة الكتب وله ولع بالتفسير ، لابد أن يقرأ كثيراً فيما تحت يديه من كتب التفسير ، ولابد أن يعجب ببعض منها ، ويتأثر به فيما يحاول من كتابة التفسير ، ولقد رأينا الخازن قد تأثر إلى حد كبير ، بالتفاسير التى لها عناية بالجانب القصصى ، فأكثر عنها النقل فى تفسيره ، وكان أكثر ما تأثر به من ذلك تفسير الثعلبى ، الذى كثيراً ما يعزو إليه بعض ما يرويه من الاسرائيليات .

والخازن فوق هذا كان متصوفا واعظا ، ومن هنا أيضا غلب على تفسيره اللون القصصى ، كما غلب على الثعلبى رحمه الله .

واذا ما أردنا أن نسوق أمثلة من الجانب القصصى فى تفسير الثعلبى ، وفى تفسير الخازن ، وجدنا أنفسنا أمام قصص كثيرة ، وأخبار طوال ، يمل القارىء من قراءتها ، ويسأم الكاتب من كتابتها ، فان اقتصرت فى ذكر الأمثلة على مثال واحد لكل منهما ، واختصرت بعض العبارات ، فعذرى فى ذلك أنى لا أريد أن أبلغ بالقارىء ولا بنفسى حد الملل والسآمة .

وإليك مثلا مما جاء فى تفسير الثعلبى :

لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآية : ١٠ من سورة الكهف :

« **إذ أوى الفتية إلى الكهف** . . . » روى عن السدى ووهب بن منبه وغيرهما رواية طويلة فيها ذكر أسماء هؤلاء الفتية واسم كلبهم ، وفيها حوار غريب بين الكلب والفتية حين تبعهم الكلب فحاولوا رده ، وأعجب ما فيها : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم طلب من ربه أن يريه أصحاب الكهف فأجابه بأنه لن يراهم فى دار الدنيا ، وأمره أن يرسل إليهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته .

يروى الثعلبى هذه الرواية فيقول فيما يروى عن السدى ووهب وغيرهما « . . . وأسماؤهم ـ يريد الفتية ـ مكشلميثا : وهو كبيرهم ورئيسهم ، وامليخا : وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم ، ومكشيثا ، ومرطوش ، ونوانس ، وكيد سططنوس ، وكلبهم قطمير . . . » ثم قال : « قال كعب : مروا بكلب فنبح ، فطردوه مرارا ، فقام الكلب على رجليه ، رافعا يديه إلى السماء كهيئة الداعى ، فنطق فقال : لا تخافوا منى أنا أحب أحباء الله ، فناموا حتى أحرسكم . . » ثم ذكر من قصتهم ما ذكر الى أن قال : « وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه اياهم ، فقال : انك لن تراهم فى دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ، ويدعوهم الى الايمان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك ، وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر ، وعلى الآخر عمر ، وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع على ابن أبى طالب ، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان ، فان الله تعالى يأمرها أن تطيعك ، ففعل ، فحملتهم الريح إلى باب

الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلب عليهم ، فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بعينيه ، وأومأ برأسه ان ادخلوا فدخلوا الكهف ، فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد الله على الفتية أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم ، وقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا : معشر الفتية . . ان النبى محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم ما أبلغتم ، وقبلوا دينه وأسلموا ، ثم قالوا : أقرئوا محمداً رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم ، وصاروا إلى رقدتهم . . . » أ هـ (ج ٤ ص ١٢١ - ١٢٥) .

والعجيب أن الثعلبى يمر على هذه الرواية دون أن يتعقبها بكلمة تكذيب لها أو شك فيها ، ولست أرى إلا أنها رواية تحمل فى طياتها دليل كذبها ، فما محمد عليه الصلاة والسلام بالشخص الذى يعبث فيسأل ربه أن يريه أصحاب الكهف ، ولو وقع منه سؤال لربه - كما فى الرواية - فلم لا يجاب إلى طلبه ويؤمر بإرسال أربعة من صحابته اليهم ، فيرونهم رأى العين ؟ . . هل معنى هذا : أن محمداً صلى الله عليه وسلم هان على الله فحرمه من شيء تاقت نفسه اليه ولم يحرم منه بعض أصحابه ؟ ولم كان الأربعة الذين أرسلهم خصوص أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وهم الخلفاء الأربعة ؟ أليس فى ذلك روائح الكذب، وأمارت الاختلاف ؟ . ثم أليس فى تسخير الريح لمحمد عليه الصلاة والسلام ما يتنافى مع ما جاء فى القرآن من قول نبى الله سليمان عليه السلام : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت

الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب »[8] ؟ وما ثبت من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم أن يربط شيطانا بسارية المسجد ، حتى إذا أصبح الصبح يراه أصحابه ، فلما تذكر دعوة أخيه سليمان : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » أطلقه.. أليس فى كل ما ذكرت ما يكفى لرد هذه الرواية ، وأنها لا أساس لها من الصحة ؟ أعتقد أن فيما ذكرته ما يكفى لردها وبيان بطلانها . .

ثم إليك مثلا مما جاء فى تفسير الخازن :

لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآيتين : ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء : « **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** » . نراه يروى عن وهب ابن منبه قصة طويلة لا يكاد يقرها عقل ولا شرع فيقول :

« قال وهب بن منبه : كان أيوب رجلا من الروم ، وهو أيوب ابن أموص بن نارخ بن روم بن عيص بن اسحاق بن ابراهيم . وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا ، وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها ، وكان له فيها من أصناف المال كله ، من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ، ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدد والكثرة ، وكان له خمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل له آلة كل فدان أتان ، لكل أتان من الولد اثنان أو

(٨) سورة ص : ٣٥ ، ٣٦ .

ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك ، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان براً تقيا رحيما بالمساكين ، يطعمهم ، ويكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكرا لأنعم الله ، مؤديا لحق الله ، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا . وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها ، إلا من استرق السمع ، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدرك إبليس الحسد والبغض ، فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف ، وقال : إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ، ولخرج عن طاعتك ، قال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله ، فانقض عدو الله حتى وقع على الأرض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين ، وقال لهم : ماذا عندكم من القوة ؟ فقد سلطت على مال أيوب ، وهو المصيبة الفادحة ، والفتنة التى لا تصبر عليها الرجال » . . ثم ذكر أقوالا غريبة فى إفناء مال أيوب عقبها بقوله « فلما رأى إبليس أنه أفنى ماله ، ولم ينجح منه بشيء ، صعد سريعا حتى وقف الموقف الذى يقف فيه ، وسأل الله أن يسلطه على ولده ، فقال الله له : انطلق فقد سلطتك على ولده » . . وذكر ما كان من بلاء وعذاب وهلاك

وقع بولده ، وأن إبليس جاء الى أيوب بعد ذلك وقال له : « لو رأيت بنيك كيف عذبوا ، وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم ، تسيل دماؤهم وأدمغتهم ، ولو رأيت كيف شققت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم ، فبكى أيوب وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال : يا ليت أمى لم تلدنى ، ثم لم يلبث أيوب أن تاب إلى ربه ، فوقف إبليس خاسئا ذليلا ، وسأل الله أن يسلطه على جسد أيوب ، فقال له عز وجل : انطلق فقد سلطتك على جسده . ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله . . فانقض عدو الله إبليس سريعا ، فوجد أيوب ساجدا ، فعجل قبل أن يرفع رأسه ، فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده . فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة فحك بأظافره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ، ثم حكها بالفخارة والحجارة الخشنة حتى قرح لحمه وتقطع ، وتغير وانتن ، فأخرجه أهل القرية حتى جعلوه على كناسة لهم ، وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته » . . ثم ذكر كلاما طويلا فى جوار أيوب من بعض خلصائه ، وفى تضرعه إلى الله أن يكشف عنه مابه من بلاء وضر ، وما كان من كلام الله له وكشفه الضر عنه ، ثم نقل عن الحسن « أن أيوب مكث مطروحا على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين وأشهرا ، يختلف فيه الدود ، ولا يقربه أحد غير رحمة ـ اسم زوجته ـ ثم أن صبر أيوب على بلائه أعيا إبليس فاستشار أعوانه فأشاروا عليه أن يأتيه من قبل زوجته ، فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب فتمثل لها فى صورة رجل

وقال لها : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحك قروحه ، ويتردد الديدان فى جسده ، فأخذ يوسوس لها ويذكرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبدا ، فصرخت فعلم أنها قد جزعت ، فأتاها بسخلة وقال : ليذبح لى هذه أيوب ويبرأ ، فجاءت تصرخ : يا أيوب ، حتى متى يعذبك ربك ؟ أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ أين جسمك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ، فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك ، ويلك . . والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، أمرتني أن أذبح لغير الله . . وطردها . . إلي آخر القصة » (الخازن ج ٤ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٤) .

والعجيب أن الخازن ينتهي من هذه القصة ، ثم لا يعقبها بأية كلمة تشعر بتكذيبها أو الشك فيها ، مع أنها بلا شك رواية موضوعة مكذوبة ، بل ومدسوسة على القرآن الكريم ، ويمكن دفعها عقلا ونقلا ، فالعقل لا يقبل بحال من الأحوال ، أن يكون أي داعية إلي مبدأ أو عقيدة فيه كل هذه المنفرات ، التى تصد الناس عنه وتباعد بينهم وبينه . والنقل صريح فى أن القادة لابد أن تكون لهم من الصفات البدنية ما يمتازون به ، وما يلقى عليهم شيئا من المهابة . . وإلا فما معنى قوله تعالى فى الآية : ٢٤٧ من سورة البقرة :

« وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أني يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم » .

وبعد ، فهذان مثلان من أمثلة الاتجاه المنحرف لبعض الإخباريين والقصاص ، سقناهما وبينا ما فيهما من زيف واختلاف .

وكلمة الحق أن هذه الإسرائيليات التى أخذها بعض المفسرين عن أهل الكتاب ، وشرحوا بها كتاب الله تعالى . كان لها أثر سيىء فى التفسير ، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة من الالتزام بدائرة المباح من ذلك ، بل تعدى دائرة الجواز ، فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع ، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئا مما جاء فيها لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وليس من شك فى أن هؤلاء الذين أكثروا من نقل الإسرائيليات وغيرها من الأخبار ، وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير ، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح .

وليتنا نجد من بين علمائنا من ينشط الى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات ويطهرها من كل ما دخل فيها من الروايات التى لا نصيب لها من الصحة حتى يستطيع الناظر فى كتب التفسير أن يفهم كلام الله ـ سبحانه ـ فهماً صحيحاً وبعيدا عن أكاذيب الرواة وخيالات القصاصين .

***

مع أصحاب المذاهب النحوية

● الاتجاه المنحرف فى التفسير لبعض أصحاب المذاهب النحوية :

قلنا فيما تقدم : ان علم التفسير دون ضمن ما دون من علوم مختلفة ، وقلنا : ان كل صاحب فن برع فى فنه وألف فى تفسير القرآن الكريم تأثر فى تفسيره إلى حد كبير بفنه الذى برع فيه : فالمؤرخ تأثر بالتاريخ فى تفسيره ، والفقيه تأثر بالفقه ، والبلاغى تأثر بالبلاغة ، والنحوى تأثر بالنحو . . وهكذا كل من له عناية بعلم من العلوم ، نجده يتأثر بهذا العلم فى تفسيره للقرآن ، ويتطرق إليه لأدنى مناسبة ، بل ربما يقحم بعض أبحاثه على التفسير ، لا لشيء إلا لمجرد الاستطراد .

واذا كنا نعيب على أمثال هؤلاء أنهم كتبوا ما يمكن الاستغناء عن كتابته ، وشغلوا الناظر فى تفاسيرهم بما استطردوا اليه من غير حاجة حتى كادوا يصرفون الناس عنها ، فالعيب كل العيب على بعض هؤلاء المفسرين الذين كانت لهم بالنحو عناية خاصة . وكانت لهم فيه مذاهب متبعة ، يتمسكون بها ولا يرون صحة ما سوها ، ثم يجدون فى كتاب الله تعالى آية تقرأ بقراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يسعهم إلا أن ينكروا هذه القراءة ، لأنهم لا يرونها تتمشى مع مذهبهم النحوى ، بل ولا يكفيهم هذا الإنكار ، فيرمون من قرأ بها بأنه

لا يدرك ما فى القرآن من حسن النظم وجزالته .

ومن هؤلاء الذين اتجهوا هذا الاتجاه المنحرف : الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ فى تفسيره المعروف بالكشاف ، وابن عطية الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ فى تفسيره « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز »[1] .

وأبرز مثال لهذا الاتجاه ما ذكره الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية : ١٣٧ من سورة الأنعام : « **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم** . . . » ، فقد فسر هذه الآية على قراءة حفص التى يقرأ فيها الفعل « زين » على البناء للفاعل الذى هو شركاؤهم ، وفسرها على قراءة غيره التى يقرأ فيها الفعل « زين » على البناء للمفعول الذى هو القتل المضاف لأولادهم ، ورفع « شركاؤهم » باضمار فعل دل عليه « زين » كأنه قيل : من زينه ؟ فقيل : زينه شركاؤهم .

فسر الزمخشرى الآية على هاتين القراءتين تفسيرا مقبولا ، ثم قال ما نصه : « وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم ، برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء ، على اضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ـ وهو المفعول ـ فشىء لو كان فى مكان الضرورات ـ وهو الشعر ـ لكان سمجا مردودا ، كما سمج ورد « زج القلوص أبى مزادة » فكيف به فى الكلام المنثور؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ . والذى حمله ـ يريد ابن عامر ـ على ذلك أنه رأى فى بعض

---

(١) توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية

المصاحف « شركائهم » مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ـ لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم ـ لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب » أ هـ (فى الكشاف جـ ١ ص ٢٧٢) .

وابن عطية الأندلسى يقول عن قراءة ابن عامر ـ كما يذكر ذلك أبو حيان فى تفسيره « البحر المحيط جـ ٤ ص ٢٢٩ » : « وهذه قراءة ضعيفة فى استعمال العرب ، وذلك أنه أضاف الفعل إلى الفاعل وهو الشركاء ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظرف فى مثل هذا إلا فى الشعر كقوله :

كما خط الكتاب بكف يوما
يهودي يقارب أو يزيل

فكيف بالمفعول فى أفصح كلام ؟ »

والواقع أن رد هذه القراءة المروية عن ابن عامر ، مبنى على ما ذهب إليه جمهور البصريين من عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلا بالنظر ولضرورة الشعر فقط .

ولا شك أن انكار هذه القراءة غير مقبول بالمرة ، وهو انكار ندفعه ولا نقر عليه الزمخشرى ومن وافقه ، ذلك لأن المسألة خلافية بين النحويين ، فمنهم من أجاز مثل هذا التركيب حتى فى الكلام المرسل ولغير ضرورة ـ وهذا ـ كما يقول أبو حيان ـ هو الصحيح لوجوده فى هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربى الصريح المحصن بن عامر ، الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان

قبل أن يظهر اللحن فى لسان العرب ، ولوجودها أيضا فى لسان العرب فى عدة أبيات .

ولقد سخر أبو حيان من الزمخشرى لإنكاره قراءة ابن عامر فقال ما نصه : « وعجب لأعجمى ضعيف فى النحو يرد على عربى صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها فى لسان العرب فى غير من بيت ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم » أ هـ (من البحر المحيط جـ ٤ ص ٢٣٠) .

كذلك وجدنا ابن المنير السكندرى فى كتابه الانتصاب الموجود بهامش الكشاف ، يعقب على كلام الزمخشرى فيقول « لقد ركب المصنف فى هذا الفصل متن عمياء ، وتاه فى تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله وأبرأ حملة كتابه ، وحفظة كلامه مما رماهم به ، فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا فأقرأ به اجتهادا لا نقلا وسماعا ، فلذلك غلط ابن عامر فى قراءته هذه » . . ثم ذكر ما قاله الزمخشرى فى تخطىء ابن عامر وعقب عليه بقوله : « وهذا ـ كما ترى ـ ظن من الزمخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا وكان الصواب خلافه والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشرى أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف اليه بها يعلم ضرورة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك، ثم تلاها النبى صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

يتنقلونها ويقرأون بها خلفا عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر ، فقرأها أيضا كما سمعها ، فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم ، فاذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرى ، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر » . . ثم قال « ان الزمخشرى ما حمله على هذا الخيال إلا التغالى فى اعتقاد إطراد الأقيسة النحوية فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها » . . ثم ساق ابن المنير أمثلة كثيرة على تأييد قراءة ابن عامر عقبها بقوله « وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة » أ هـ (من الانتصاف على الكشاف جـ ١ ص ٤٧١ - ٤٧٢) .

هذا ، وفى كتاب الكشاف مواقف كثيرة للزمخشرى ينكر فيها بعض ما ثبت من قراءات متواترة ، متأثرا فى ذلك بمذهبه النحوى ، وما كان للزمخشرى ولا لغيره أن يحكم مذهبه النحوى فى كتاب الله ، فكتاب الله هو الأصل الذى يرجع إليه ، وهو الحجة التى تقضى على كل ما يجرى من خلاف بين النحاة .

* * *

● الاتجاه المنحرف فى التفسير لبعض من يجهلون قواعد العربية :

من الناس فريق تكلموا فى تفسير القرآن ، وكتبوا فيه من غير أن تكون لهم دراية تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها ، ولا بمبدأ اشتقاق الكلمات وكيفية تصريفها ، ومن هنا كان لهم فى تفسير القرآن الكريم اتجاه منحرف يخرج باللفظ القرآنى عن معناه

اللغوى الذى وضع له الى معنى آخر غير مراد به حقيقة أو مجازا .

ولم نقف لأصحاب هذا الاتجاه على مؤلفات فى التفسير ، وكل ما وجدناه لهم أقوال نقلها عنهم بعض المفسرين فى تفاسيرهم أو مصنفاتهم التى تكلموا فيها عن التفسير .

فمن ذلك ما نقله ابن قتيبة عن بعض المعتزلة فى تفسير قوله تعالى :

« **وسع كرسيه السموات والأرض** »[2] أن معناه : وسع علمه وأنه ساق على ذلك شاهدا لا يعرف وهو قول الشاعر :

* ولا يكرسىء علم الله مخلوق *

قال ابن قتيبة : « كأنه عندهم : ولا يعلم علم الله مخلوق ، والكرسى غير مهموز ، ويكرسىء مهموز » . . ثم بين ابن قتيبة أن الذى دفعهم إلى هذا الاتجاه فى فهم اللفظ والخروج به عن معناه ، أنهم يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيا أو سريرا ، ويجعلون العرش شيئا آخر ، ثم دفع هذا بأن العرب لا تعرف من العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار . . وساق على ذلك الأدلة ، من القرآن والشعر العربى القديم .

ومما نقله ابن قتيبة أيضا عن بعض المعتزلة فى تفسير قوله تعالى : « **وعصى آدم ربه فغوى** »[3] أن معنى غوى : أتخم من أكل الشجرة .

---

(٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) طه : ١٢١ .

ونحن نعرف أن الذى حملهم على هذا التفسير إنما هو الفرار من نسبة الغواية إلى آدم عليه السلام ، وغفلوا عن أن أكل آدم من الشجرة إنما كان عن نسيان كما قال سبحانه : « **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** »[٤] والناسى لا يكون غاويا بالمعنى الذى فهموه وتحاشوه بهذا التأويل .

ولقد دفع ابن قتيبة هذا الاتجاه فى تفسيرهم لكلمة « غـوى » وأبطله بالاحتكام إلى أصول اللغة العربية فقال : « انهم ذهبوا إلى قول العرب : « غوى الفصيل يغوى غوىً » ، إذا أكثر من شرب اللبن حتى يبشم ، وذلك غَوى يغوى غياً . وهو من البشم غوى يغوى غوىً » .

كذلك نقل ابن قتيبة عن بعض المعتزلة : أنهم فسروا قوله تعالى : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس** . . »[٥] فقالوا : ذرأنا لجهنم : أى ألقينا فيها .

وظاهر أن الذى حملهم على هذا التفسير إنما هو مذهبهم فى أن الله لا يخلق الهداية والضلال ، وأنه لم يخلق خلقا للنار وخلقا للجنة .

وقد احتكم ابن قتيبة إلى أصول اللغة ، ورد عليهم تأويلهم هذا فقال : « إنهم ذهبوا إلى قول الناس : ذرته الريح ، ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح ، لأن ذرأنا مهموز ، وذرته الريح تذروه غير مهموز » . قال : « ولا يجوز أيضا أن نجعله من أذرته

---

(٤) طه : ١١٥ (٥) الأعراف : ١٧٩

الدابة عن ظهرها : أى ألقته ، لأن ذلك من « ذرأت » تقدير فعلت بالهمز ، وهذا من أذريت تقدير أفعلت بلا همز »[٦] .

ومن الأمثلة التى ترجع إلى الجهل بتصريف الكلمة ، ما نقله الزمخشرى فى الكشاف عن بعض أصحاب هذا الاتجاه عند تفسيره لقوله تعالى : « **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** »[٧] وذلك حيث يقول : « ومن بدع التفاسير : أن الامام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء ، رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنا » .

ولقد أثار هذا التفسير سخرية الزمخشرى من قائله ، فقال معقبا عليه :

« وليت شعرى أيهما أبدع ، أصحة لفظه ؟ أم بهاء حكمته » ؟

والواقع أن الزمخشرى على حق حينما وصف هذا القول بأنه من بدع التفاسير ، لأنه غلط بين ، دفع جهل قائله بالتصريف ، فإن أماً لا يجمع على إمام ، وانما يجمع على أمهات ، كما أن ما ذكر من حكمة دعت إلى هذا التفسير ، لا تعدو أن تكون من قبيل معتقدات العامة التى لا يجوز تحكيمها فى فهم كتاب الله عز وجل .

* * *

(٦) انظر : مقدمة تأويل مختلف الحديث لابن تيمية .

(٧) الاسراء : ٧١

مع المعتزلة والشيعة

● الاتجاه المنحرف فى التفسير للمعتزلة :

لما ظهرت المذاهب الدينية تأثر التفسير بها إلى حد كبير ، ذلك لأن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذى يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة - من المسلمين - ليأخذ كل منه ما يشهد لمذهبه ، ولو بطريق اخضاع النص القرآنى له ، وقسره على موافقة رأيه وهواه ، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلا لا ينافى مذهبه ولا يعارض عقيدته .

ولقد استفحل الأمر الى حد جعل أصحاب المذاهب والأهواء يتسعون فى حماية مذاهبهم وأهوائهم ، والترويج لها فى غير محيطهم ، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله - سبحانه - على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم .

وكانت فرقة المعتزلة من بين هذه الفرق التى تأولت كثيراً من آيات القرآن على غير تأويلها ، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاها منحرفا ، من أجل خدمة مبادئها التى تدين بها .

واذا ذهبنا نستعرض ما كتبه المفسرون من المعتزلة فى تفاسيرهم ، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات ، التى تخدم أصولهم الخمسة التى يجمعون عليها ، وهى : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر

...روف والنهى عن المنكر .

ويكفى أن نعرض بعض الأمثلة ، من تأويلات المعتزلة التى تعطينا صورة واضحة على المهارة الفائقة التى يلوون بها الآية الى جانبهم ، ويصرفونها عن أن تكون دليلا لخصومهم .

فمن ذلك : أنهم فسروا قوله تعالى فى الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة : « **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** » بما يتمشى مع مذهبهم الذى ينفى جواز رؤية الله تعالى ، فقالوا : « اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا فى إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية فى قوله تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** » على وجوه معروفة ، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية ولا الرؤية من أحد احتمالاته ودللوا على أن النظر ينقسم إلى أقسام كثيرة ، منها : تقليب الحدقة الصحيحة فى جهة المرئى طلبا للرؤية . ومنها : النظر وهو الانتظار . ومنها : النظر الذى هو التعطف والمرحمة . ومنها : النظر الذى هو الفكر والتأمل . وقالوا : إذا لم يكن فى أقسام النظر الرؤية لم يكن للقوم بظاهرها تعلق ، واحتجنا جميعا إلى طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية . وتأولها بعضهم على الانتظار للثواب وإن كان المنتظر فى الحقيقة محذوفا ، والمنتظر منه مذكورا على عادة للعرب معروفة .

وذهب بعضهم فى صرف الآية عن مذهب أهل السنة فى الرؤية ، إلى وجه آخر يصح الاعتماد عليه ، سواء أكان النظر المذكور فى الآية هو الانتظار بالقلب ، أم الرؤية بالعين ، وهو أن يحمل قوله تعالى : « **إلى ربها** » إلى أنه أراد نعمة ربها ، لأن الآلاء : النعم ، وعليه فيكون التقدير : منتظرة ، أو ناظرة نعمة

ربها . واستشهد على ذلك بقول أعشى بكر بن وائل :

أبيض لا يرهب الهــــزل ولا
يقطــع رحمــا ولا يخــون آلاء

« أى أنه لا يخون نعمة » أ هـ (من أمالى الشريف المرتضى جـ ١ ص ٢٨ - ٢٩) .

وذهب الزمخشرى - وهو من رؤوس المعتزلة - فى تفسيره إلى أن النظر فى الآية معناه التوقع والرجاء ، فهو من قبيل قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، تريد معنى التوقع والرجاء ، قال : ومنه قول القائل :

وإذا نظــرت اليــك من مــــلك
والبحر دونــك زدتنى نعمـــا

وعلى هذا فمعنى الآية - كما يقول - أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . أ هـ (من الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٩) .

والناظر فى تأويلات المعتزلة لهذه الآية يرى أنهم قد صرفوا لفظ « ناظرة » عن احتمال أن يراد به رؤية العين ، أو أنهم أبقوه على احتمال معنى الرؤية بالعين ، ولكنهم استعملوا مهارتهم اللغوية فصرفوا لفظ « إلى » عن الحرفية إلى الإسمية ، وكل هذه المحاولات غير سليمة ، فإن تأويل النظر بمعنى الانتظار مدفوع بأنه بهذا المعنى لا يتعدى بـ « الى » ، بل يتعدى « بنفسه » ، وبأنه لا يسند إلى الوجه ، فلا يقال : وجه فلان منتظر . وحمله على

توقع النعمة والكرامة من الله تكلف ظاهر ، وهو يؤدى إلى معنى الانتظار ، والانتظـار لا يساعده المقام لأنه لا نعمة فيه كما يقول الآلوسى . وصرف « إلى » عن الحرفية إلى الإسمية تكلف ظاهر ، وفيه من البعد ما فيه . . . ثم إن آيات الرؤية فى مواضعها وسياقاتها ، لا يفهم منها إلا أن المراد الرؤية البصرية ، مع تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من الاحاطة به وكونه فى مكان . . . وغير ذلك مما يفضى إلى التشبيه .

على أن مذهب أهل السنة ، قد صرحت به الأحاديث الصحيحة التى رواها البخارى ومسلم وغيرهما ، ولا نريد أن نطيل بذكر أدلة أهل السنة على مذهبهم فى الرؤية ، وإبطال مذهب المعتزلة فقد تناولت كتب العقائد هذا الموضوع بتوسع ، والرجوع اليها سهل ميسـور .

ومن أمثلة الاتجاه المنحرف للمعتزلة فى التفسير ـ أيضا ـ أنهم لما عرضوا لتفسير قوله تعالى فى الآية : ١٦٤ من سورة النساء : « **وكلم الله موسى تكليما** » ووجدوا أنها تعارض مذهبهم فى صـفة الكلام لله تعالى ، حيث جاء المصدر مؤكدا للفعل ، رافعا لاحتمـال المجاز ، بادروا الى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبهم ، فقرأوه هكذا : « **وكلم الله موسى تكليما** » بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول ، ورفع موسى على أنه فاعل . وبعض المعتزلة يبقى النص القرآنى على قراءته المتواترة ، ولكنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادما لمذهبه فيقول : ان كلم من « الكلم » بمعنى الجرح ، فالمعنى : وجوح الله موسى بأظفار المحن

ومخالب الفتن ، وهذا ليفر من ظاهر النظم الذى يصادم عقيدته ويخالف مذهبه .

هذا الذى ذكرناه عرض له الزمخشرى فى تفسيره (جـ ١ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، وقد نسب القول الأول إلى بعض شيوخ المعتزلة ولم يعقب عليه ، كأنه ارتضاه وصوبه ، والواقع أنه قول لا يرضاه منصف ، ولا يصوبه إلا متحيز لإخوانه فى المذاهب ، فالقراءة التى فيها « لفظ الجلالة » مرفوع على أنه الفاعل ، و« موسى » منصوب على أنه المفعول هى القراءة المتواترة ، ولا يقول منصف بترك القراءة المتواترة والأخذ بقراءة لم تبلغ حد التواتر ، بل ولا تعرف لها سندا صحيحا إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

والقول الثانى عدول عن المعنى المتبادر من اللفظ ، ولا يساعده السياق ، ولهذا نرى الزمخشرى ـ على اعتزاله ـ يستسخف هذا الرأى ، ويصفه بأنه من بدع التفاسير ، ويعقب ابن المنير على قول الزمخشرى فيقول : « وصدق الزمخشرى وأنصف ، انه لمن بدع التفاسير التى ينبو عنها الفهم ، ولا يبين بها إلا الوهم ، والله الموفق » .

ومن أمثلة الاتجاه المنحرف للمعتزلة فى التفسير ـ أيضاً ـ ما ذهب إليه القاضى عبد الجبار فى كتابه : تنزيه القرآن عن المطاعن (ص ١٤٠) عندما عرض لقوله تعالى فى الآية : ١٧٨ من سورة الأعراف : « **من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** » فيقول ما نصه : « وربما قيل فى قوله تعالى :

« من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » أليس ذلك يدل على أنه يخلق الهدى والضلال » ؟ .

وجوابنا : ان المراد : « من يهد الله إلى الجنة والثواب فهو المهتدى فى الدنيا ، ومن يضلل عن الثواب إلى العقاب فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا ، وسبيل ذلك أن يكون بعثا من الله تعالى على الطاعة ، وكذلك قوله تعالى : **« من يضلل الله فلا هادى له »**[1]. المراد من يضلله عن الثواب فى الآخرة فلا هادى له إليه ، وإن كنا قد أزحنا العلة ، وسهلنا السبيل إلى الطاعة »ا هـ .

وليس من شك فى أن القاضى عبدالجبار ، ما دفعه إلى هذا الاتجاه المنحرف فى تأويل الآية إلا أنه اعتقد ـ كبقية المعتزلة ـ أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد ، وهذا بلا ريب اعتقاد فاسد ، يدفعه قول الله تعالى : **« الله خالق كل شىء »**[2].

على أن التأويل الذى تأوله القاضى عبدالجبار ـ على ما فيه من تكلف ظاهر ـ تأويل منكوس ، حيث جعل الهداية الى الثواب فى الآخرة ، وسيلة الهداية إلى الطاعة فى الدنيا ، وجعل الإضلال عن الثواب فى الآخرة وسيلة الى الخسران فى الدنيا ، والترتيب الطبيعى عكس ذلك .

ولا أريد أن أستقصى ما للمعتزلة من تأويلات منحرفة ،

---

(١) الأعراف : ١٨٦ . (٢) الزمر : ٦٢ .

ويكفى من يريد الاطلاع على الكثير فى ذلك ، أن يقرأ كشاف الزمخشرى ، وتنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبدالجبار ، وغيرهما من تفاسير المعتزلة ، ليقف على ما لهم من تأويلات يجب أن ينزه عنها كتاب الله عز وجل .

* * *

● الاتجاه المنحرف فى التفسير للشيعة (الامامية الاثنى عشرية) :

إذا أجلنا النظر فى المذهب الشيعى ، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والانقسام فى الرأى والعقيدة ، فبينما نجد الغلاة الذين رفعوا علياً إلى مرتبة الألوهية فكفروا ، نجد المعتدلين الذين يرون أن علياً أفضل من غيره من الصحابة ، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب ، ونجد من يقف موقفاً وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء ، فلا هو يؤله علياً ، ولا هو يرى أنه بشر يخطىء ويصيب ، بل يري أنه معصوم ، وأنه الخليفة بعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وكان طبيعيا ـ وكل حزب من أحزاب الشيعة ينتسب الى الاسلام ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة[٣] ـ أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن الكريم ، ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهدا له لا عليه ، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون ـ فى نظره ـ دليلا على مذهبه تمسك به ، وما وجده مخالفا لمذهبه ، حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقا له ، أو على

---

(٣) قلنا : « ولو فى الجملة » ، لأن أكثر الإمامية الإثنى عشرية يقولون بأن القرآن وقع فيه التحريف بالزيادة والنقصان ، وهو قول باطل من أساسه .

الأقل غير معارض ، ولو أدى ذلك إلى الخروج بالنص القرآنى عن معناه الذى سيق من أجله .

وللشيعة على اختلاف مذاهبها آثار فى تفسير القرآن الكريم ولكن أكثرها أثراً فرقة الإمامية الإثنى عشرية ، وهم الذين يقولون بأن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامة على من بعده وأن الإمامة انتقلت من على إلى ابنه الحسن بالوصية من أبيه ، ثم إلى الحسين ، ثم إلى ابنه على زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه موسى الكاظم ، ثم إلى ابنه على الرضا ، ثم إلى ابنه محمد الجواد ، ثم إلى ابنه على الهادى ، ثم إلى ابنه الحسن العسكرى ، ثم إلى ابنه محمد المهدى المنتظر ، وهو الإمام الثانى عشر ، ويزعمون أنه دخل سرداباً فى دار أبيه بسر من رأى وأنه سيخرج فى آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا وأمنا ، كما ملئت ظلما وخوفا .

وهؤلاء قد جاوزوا الحد فى تقديسهم للأئمة ، فزعموا أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء . وقالوا : ان الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله ، وأن من مات غير معتقد بالامام ، فهو ميت على الكفر .

وللإمامية الإثنى عشرية تعاليم ، أشهرها : العصمة ، والمهدية ، والرجعة ، والتقية .

أما العصمة : فيقصدون بها عصمة أئمتهم من الصغائر والكبائر ، ولا يجوز عليهم شىء من الخطأ أو النسيان .

وأما المهدية : فيقصدون منها الإمام المهدى المنتظر ، الذى

اختفى فى سرداب بسامرا ، والذى سيخرج فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا وأمنا .

وأما الرجعة : فهى عقيدة لازمة لفكرة المهديه ، ومعناها : أنه بعد ظهور المهدى المنتظر ، يرجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ، ويرجع على ، وسائر الأئمة الإثنى عشر ، كما يرجع خصومهم كأبى بكر وعمر ، فيقتص للأئمة من خصومهم ، ثم يموتون جميعا ، ثم يحيون يوم القيامة .

وأما التقية : فمعناها المداراة والمصانعة ، وهى مبدأ أساسى عندهم ، وجزء من الدين ، يدعون لإمامهم المختفى ، ويظهرون الطاعة لصاحب السلطان ، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة الظالمة .

واذا تتبعنا تراث الإمامية الإثنى عشرية فى التفسير ، وجدنا لهم فيها وصفات كثيرة . . دونت قديما وحديثا ، وكلها يدور حول تركيز عقيدتهم ، مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال .

ولأجل أن نوضح مدى تأثير عقيدة الإمامية الإثنى عشرية فى اتجاههم فى التفسير ، ونعرف مدى انحراف هذا الاتجاه عن النهج القويم لفهم كتاب الله تعالى ، نذكر بعض الأمثلة من تفاسيرهم ، مع بيان الدوافع التى دفعت بهم إلى هذا النحو فى التفسير ، ثم نبين بطلان ما ذهبوا إليه من ذلك .

فمثلا فى كتاب تفسير القرآن للسيد عبدالله العلوى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ نجده عندما يعرض للآية : ٥٥ فى سورة المائدة : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم راكعون » يقول ما نصه :

« يذكر أنها نزلت فى على ، عليه السلام حين سأله سائل وهو راكع فى صلاته ، فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها » . . ثم يقول « وتدل ـ يعنى الآية ـ على إمامته دون سواه ، للحصر ، وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات ، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيما ، أو لدخول أولاده الطاهرين » اهـ (ص ٢) .

وفى كتاب البرهان فى تفسير القرآن للبحرانى المتوفى سنة ١١٠٧ هـ نجده حينما يفسر الآية السابقة يقول ما نصه « ان رهطا من اليهود أسلموا ، منهم : عبدالله بن سلام ، وأسيد بن ثعلبة ، وابن يامين ، وابن صوريا ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبى الله ان موسى أوصى إلى يوشع بن نون ، فمن وصيك يا رسول الله ؟ ومن ولينا من بعدك ؟ فنزلت هذه الآية : « **إنما وليكم الله ورسوله** » الآية قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « قوموا » فقاموا وأتوا المسجد ، فإذا سائل خارج فقال : « يا سائل ، ما أعطاك أحد شيئاً » ؟ قال : نعم هذا الخاتم ، قال « من أعطاكه » ؟ قال : أعطانيه ذلك الرجل الذى يصلى ، قال : « على أى حال أعطاك » ؟ قال : راكعا ، فكبر النبى وكبر أهل المسجد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « على بن أبى طالب وليكم بعدى » قالوا : رضينا بالله رباً ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، وبعلى بن أبى طالب وليا ، فأنزل الله عز وجل : « **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** »[٤] فروى أن عمر بن الخطاب قال : والله لقد

---

(٤) المائدة : ٥٦ .

تصدقت بأربعين خاتما وأنا راكع لينزل الله فى ما نزل فى على بن أبى طالب عليه السلام فما نزل » اهـ (ص ٤٨٠) .

وعندما يعرض البحرانى لقوله تعالى فى الآيتين : ٨ ، ٩ من سورة الذاريات : « **إنكم لفى قول مختلف . يؤفك عنه من أفك** » يروى عن أبى جعفر أنه قال : « **إنكم لفى قول مختلف** » اختلف فى ولاية هذه الأمة ، فمن استقام على ولاية على دخل الجنة ، ومن خالف ولاية على دخل النار . وأما قوله : « **يؤفك عنه من أفك** » قال : يعنى علياً ، من أفك عن ولايته أفك عن الجنة ، فذلك قوله : « **يؤفك عنه من أفك** » اهـ (ص ٢٣١) .

وفى تفسير ابراهيم بن فرات الكوفى أحد علماء الإمامية الإثنى عشرية فى القرن الثالث الهجرى ، تجده يروى فى تفسير قوله تعالى : « **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون** »(٥) ما نصه « عن أبى حمزة الثمالى قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى : « **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون** » . فقال : كان على بن أبى طالب عليه السلام يقول لأصحابه : أنا والله النبأ العظيم الذى اختلف فيه جميع الأمم بألسنتها ، والله ما لله نبأ أعظم منى ، ولا - والله - آية أعظم منى » أهـ (ص ٢٠٢) .

وفى تفسير الطبرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ لقوله تعالى فى الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب : « **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** » نجده يحاول محاولة جدية أن يقصر

---

(٥) النبأ : ١ - ٣ .

أهل البيت على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وأن يجعل الآية خاصة بهؤلاء الخمسة ، وأن الإرادة فيها تحتمل الإرادة المحضة ، والإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس ، ثم يدعى أن الاحتمال الثانى هو المراد ، ويعقب ذلك بقوله « وفى ثبوته عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح » (جـ ١ ص ٥٠) .

وبدهى أن هذا الاتجاه فى تفسير ما سبق من الآيات إنما دفع قائليه إليه ما يعتقدون فى الإمامة والأئمة .

ولسنا بحاجة إلى الإطالة فى إبطال هذا الاتجاه ، بعد ما أثبت لنا علماء الحديث ونقاده ، أن كل الروايات فى ولاية على ليس لها أساس من الصحة ، وأنها من وضع الشيعة أنفسهم ليروجوا بها مذهبهم فى الإمامة والأئمة .

ثم ألا ترى معى أن ما ذكره البحرانى فى آخر روايته لحديث الولاية من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « والله لقد تصدقت بأربعين خاتما وأنا راكع لينزل الله فى ما نزل فى على بن أبى طالب عليه السلام فما نزل » فيه رائحة الكذب والافتراء على عمر رضى الله عنه ؟

على أن آية الولاية ـ كما يسمونها ـ يراد منها ولاية النصرة والمعونة ، لا ولاية التدبير والقيام على شأن الغير كما فهمها الإمامية . ثم ما الذى يصرف قوله : « والذين آمنوا »[٦] . .

---

(٦) المائدة : ٥٥ .

الخ ، عن عمومه إلى خصوص على رضى الله عنه ، ولو كانت الآية نزلت فى شأن على كما يقولون ، فإن المقرر الثابت أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وما ذكره ابراهيم بن فرات الكوفى فى تفسيره لأول سـورة النبأ قول ينبو عنه سياق السورة ، ويبطله أن لله سبحانه وتعالى أنباء وآيات أعظم من على رضى الله عنه .

وماذكره الطبرسى من استدلاله بآية الأحزاب على عصمة الأئمة ، مدفوع بأن صدر الآية وما بعدها فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقصرها على من ذكر ، وحمله للارادة على الإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس ، تحكم ظاهر دفعه إليه الهوى ، وحمله عليه التعصب المذهبى .

وفى تفسير البحرانى عندما عرض لقوله تعالى فى الآيات : ٣٦ ـ ٣٨ من سورة الحجر « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » يقول ما نصه « روى عن وهب بن جميع مولى اسحاق بن عمار قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول إبليس : « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » قال له وهب : جعلت فداك أى يوم هو ؟ قال : يا وهب ، أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس ؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا ، فإذا بعث قائمنا كان فى مسجد الكوفة ، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول : يا ويله من هذا اليوم ، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه ، فذلك يوم الوقت المعلوم » أ هـ (جـ ٢ ص ٢٤٣) .

وظاهر أن الذى دفع البحرانى إلى هذا الاتجاه ، إنما هو عقيدته فى إمامة المهدى المنتظر الذى سيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجوراً .

وظاهر أيضا أن البعث المذكور فى الآية هو بعث الخلائق يوم القيامة ، لا بعث مهديهم ، وإلا فما وجه الجمع فى « يبعثون » وما الدليل على مايقولون ؟ .

وفى « الصافى » لملا محسن الكاشى ، نجد المؤلف يعـرض لقوله تعالى فى الآيتين : ٥٥ ، ٥٦ من سورة البقرة : « **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** » يقول ما نصه : « . . أقول : قيد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم . وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التى قال بها أصحابنا نقلا عن أئمتهم . واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها . . . » ثم نقل عن القمى أنه قال فى الآية : « هذا دليل على الرجعة فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . . . فانه لم يكن فى بنى اسرائيل شىء ، إلا وفى أمته مثله . . يعنى دليلا على وقوعها » أ هـ (جـ ١ ص ٣٥) .

وواضح تأثير العقيدة على الكاشى فى هذا الاتجاه المنحرف فى تفسير الآية ، ولا أرى فى الآية دليلا ولا شبه دليل على الرجعة . ودعوى أنه لم يكن فى بنى اسرائيل شيء إلا وفى أمة محمد صلى الله عليه وسلم مثله ، دعوى لا تقوم على أساس من الحق ، وليس لها أصل معروف فى شريعتنا ، ولا فى غيرها من الشرائع السماوية .

وفى التفسير المنسوب إلى الحسن العسكرى عندما يعرض لقوله تعالى فى الآية : ١٦٣ من سورة البقرة : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » يقول ما نصه : « . . . الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد ، وسع لهم فى التقية ، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه إذا قدروا ، ويسرونها إذا عجزوا » أهـ (ص ٢٣٩) .

وليس يخفى أن هذا الانحراف فى التأويل إنما دفع إليه مبدأ التقية الذى تدين به الإمامية . ولست أدرى وجهاً لتخصيص ما فى الآية من رحمة الله تعالى بشيعة آل محمد ، ولا لقصر الرحمة ـ على كثرة مظاهرها ـ على مبدأ التقية الذى لا أراه إلا مبدأً سياسياً ، وباباً من أبواب النفاق والخداع الذى تجل عنه رحمة الله سبحانه .

وإذا ما تتبعنا كتب التفسير للإمامية الإثنى عشرية ، وجدناها كلها تحتوي على اتجاهات منحرفة فى التأويل ، ووجدنا كثيراً منها مليئا بخرافات وأباطيل ، لا يقرها عقل ولا شرع ، وكم من لفظ قرآنى حرف عن مدلوله الحقيقي ، إلى مدلولات لا وجودها إلا فى عقول أصحابها ، فالجبت والطاغوت حيث ورد فى القرآن ، يؤولونهما بأبى بكر وعمر ، والبقرة التى أمر الله بنى إسرائيل بذبحها ، يؤولونها بعائشة رضي الله عنها . والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة نسب بنى أمية .

ومما لا ينقضي منه العجب ، ما ذكره المولى عبداللطيف الكازرانى فى : « مرآة الأنوارومشكاة الأسرار » عن الحجة القائم

أنه سئل عن تأويل : « كهيعص » فقال : ان هذه الحروف من أنباء الغيب ، أطلع الله عليهاعبده زكريا ، ثم فصلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن ، سرى عنه همه ، وانجلى كربه ، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ، ووقعت عليه البهرة ، فقال ذات يوم : إلهي . . ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم تسليت بأسمائهم عن همومي ؟ وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي ؟ فأنبأه تعالى عن قصته ، فقال : كهيعص ، فالكاف : اسم كربلاء ، والهاء : هلاك العترة ، والياء : يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين ، والعين : عطشه ، والصاد : صبره ، فلما سمع بذلك زكريا ، لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ، ومنع فيها الناس من الدخول عليه . . . » أهـ (ص ٢٣٣) .

وهذا يخالف ما عليه جمهور المفسرين من معاني الحروف المقطعة في أوائل السور . والرمز بالحروف المذكورة في مطلع سورة مريم إلى ما ذكره الكازراني عن القائم ، ليس له وجود إلا في عقول غلاة الإمامية الإثني عشرية .

***

مع الخوارج والصوفية

● الاتجاه المنحرف فى التفسير للخوارج :

نشأت فرقة الخوارج بعد ما هو معروف من قضية التحكيم التى خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى .

ودب الخلاف بين الخوارج فتفرقوا أحزابا ، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ والعقيدة : ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين :

أحدهما : اكفار عثمان وعلى ، ومعاوية ، والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بالتحكيم .

ثانيهما : وجوب الخروج على السلطان الجائر .

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج وهو : الإكفار بارتكاب الكبائر[1] .

وللخوارج مبدأ فى الخلافة وهو : أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، واذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله ، وإلا وجب عزله .

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص ٥٥

وعلى هذا المبدأ فى الخلافة حكموا بصحة خلافة أبى بكر وعمر ، وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى ، فلما غير ولم يسر سيرة الشيخين ـ كما زعموا ـ وجب عزله . وأقروا بصحة خلافة على أولا ، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم وكفر بسببه كما يزعمون .

وكان طبيعيا ـ وقد تعددت فرق الخوارج وكلها ينتسب إلى الإسلام ويعترف بالقرآن ـ أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم تبنى عليه مبادئها وتعاليمها وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها ، فما رأته فى جانبها ـ ولو إدعاء ـ تمسكت به واعتمدت عليه ، وما رأته فى غير جانبها حاولت التخلص منه بتأويله تأويلا لا يصادم مبدأها وتعاليمها .

والذى يقرأ ما ينقل عن الخوارج من أفكار التفسير ، وما جاء فى تفاسيرهم التى فى متناول أيدينا يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم ، وتحكم فى أفهامهم ، فأصبحوا لا ينظرون للقرآن إلا من خلال آرائهم ومعتقداتهم ولا يدركون شيئاً من معانيه إلا على ضوء المذهب وتحت تأثير سلطانه .

فمثلا نرى أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد فى نار جهنم . ونقرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحديد ـ وهو ممن تعرض لهم فى كتابه « شرح نهج البلاغة » ـ يسوق لنا أدلتهم التى أخذوها من القرآن ، وبنوا عليها رأيهم فى مرتكب الكبيرة ، وكان مما ذكره من هذه الأدلة قوله تعالى فى الآية : ٩٧ من سورة آل عمران : « ولله على الناس حج

البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » قالوا : فجعل تارك الحج كافرا .

ومنها : قوله تعالى فى الآية ٤٤ من سورة المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قالوا : وكل مرتكب المذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله .

ومنها : قوله تعالى فى الآية : ٢ من سورة التغابن : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » . قالوا : وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن فوجب أن يكون كافرا[٢] .

... ولكن هل تسلم لهم هذه الأفهام التى قالوها فى هذه الآيات ونظائرها ؟

لا ... فلا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها ، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى حق مرتكبى الكبائر ، وعصاة المؤمنين ، ويتأمل قليلا فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولونها .. لا يسعه بعد هذا كله إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون ، ومندفعون بدافع العقيدة وسلطان المذاهب .

ولسنا نعرف من فرق الخوارج فرقة باقية إلى اليوم غير فرقة الإباضية ، وهى أعدلها . ولسنا نعرف لغير هذه الفرقة مصنفات فى التفسير ، والذى وقع لنا من تفاسيرهم شىء قليل ، وفى هذا القليل الذى وقع لنا واطلعنا عليه وقفنا على أمثلة كثيرة من

(٢) انظر : شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، المجلد الثانى ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

التأويلات المنحرفه فى التفسير ، والتى تأثرت إلى حد كبير بمعتقدات الإباضية ومبادئهم ، فمن هذه المثل ما يلى :

جاء فى كتاب التفسير المسمى : « هميان الزاد إلى المعاد » لمحمد بن يوسف أطفيش الإباضى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ عندما عرض لقوله تعالى فى الآية : ٢٥ من سورة البقرة : « **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** . . » ما نصه : « ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد ، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد ، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله ـ عز وجل ـ الإيمان بالعمل الصالح ؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى ؟ إذ لا يخدم الإنسان مثلا ـ سلطاناً لا يعتقد بوجوده وثبوت سلطته ، فالعمل الصالح كالبناء النافع ، المظلل المانع للحر والبرد والمضرات . والايمان أُس ، ولا ينفع الأُس بلا بناء عليه ، ولو بنى الإنسان ألوفاً من الأُسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص والحر والبرد وغير ذلك ، فإذا ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح ، وإذا ذكر العمل الصالح فما هو إلا فرع الإيمان ، إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده . وفى عطف الأعمـــال الصالحات على الإيمان دليل على أن كلاً منهما غير الآخر ، لأن الأصل فى العطف المغايرة بين المتعاطفين ، ففى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان ، إيذان بأن البشارة بالجنات إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان » أ هـ (جـ ١ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١) .

وليس يخفى أن صاحب « هميان الزاد » ، تأثر فى تفسيره

للآية بما يعتقده من أن العمل جزء الإيمان ، ولا يتحقق الإيمان بدونه ، وهذا المذهب رده أهل السنة بما هو مقرر فى كتب العقائد والرجوع إليه سهل ميسور .

وفى كتاب « هميان الزاد » أيضاً ، نجد المؤلف عندما يعرض لقوله تعالى فى الآية : ٨١ من سورة البقرة : « **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون** » يقول ما نصه : « سيئة : خصلة قبيحة ، وهى الذنب الكبير سواء أكان نفاقاً أو إشراكاً . ومن الذنوب الكبيرة الإصرار ، فانه نفسه كبيرة سواء أكان على الصغيرة أو الكبيرة . والدليل على أن السيئة كبيرة قوله : « **فأولئك أصحاب النار** » . ويحتمل وجه آخر ، وهو : أن السيئة الذنب صغيراً أو كبيراً ، ثم يخصص الكلام بالكبيرة بقوله : « **وأحاطت به خطيئته** ». وإن قلت : روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن السيئة هنا الشرك ، وكذا قال الشيخ هود[٣] ـ رحمه الله ـ انها الشرك ، قلت : ما ذكرته أولى مما ذكراه ، فإن لفظ السيئة عام ، وحمله على العموم أولى ، إذ ذلك تفسير منهما لا حديث ، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار ، ولم يحصروا دخولها على الشرك ، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكثير ، سواء أكان أبدياً أو غير أبدى ، وادعاء أن الخلود فى الموحدين بمعنى المكث الطويل ، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم ، استعمال للكلمة فى حقيقتها ومجازها وهو ضعيف ، وأيضاً ذكر

---

(٣) يريد «هود بن محكم الهوارى» من شيوخ الإباضية فى القرن الثالث الهجرى وله تفسير مشهور بين أهل المغرب .

إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره ، لكنه أنسب بغيره ، لأن الشرك أقوى : « وأحاطت به خطيئته : ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار ، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو أو الحرق ، أو حائط السجن ، وذلك بأن مات غير تائب » أ هـ (جـ ٢ ص ١٤٠) .

وليس يخفى أن الذى دعاه الى هذا الفهم المنحرف فى الآية إنما هو مذهبه فى أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار . ويكفى فى الرد على هذا المذهب ما صح عند البخارى وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا ، فيلقون فى نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية » ؟ .

وفى كتاب « هميان الزاد » أيضا نجد المؤلف حينما يعرض لقوله تعالى فى الآية : ٣٥ من سورة النساء : « **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . .** » يقول ما نصه : « . . . ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم ، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين ، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها . وأيضاً المراد هنا : الإصلاح مثلا لا مجرد بيان الحق » أ هـ (جـ ٤ ص ٤٧٨) .

والواقع أن الآية تدل على جواز التحكيم عند وقوع

الاختلاف ، وكون الحق فى جانب على ، فلا مجال حينئذ للتحكيم ، غير صحيح لأن كلاً من الطرفين يدعى أن الحق فى جانبه .

فقطعاً للخلاف كان التحكيم جائزاً حتى يعلم هؤلاء وهؤلاء ، وغيرهم ممن وقفوا محايدين أى الفريقين على الحق فيخضع الجميع له .

ثم إن صاحب « هميان الزاد » ، لا يكاد يجد مناسبة يذكر فيها عثمان أو على إلا وينال منهما ، ويدعى كذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيهما قولاً ينقص من قدرهما . فعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية : ٥٥ من سورة النور : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض . .** »

نجده يقول ما نصه : « . . قال المخالفون عن الضحاك : إن الذين آمنوا هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، وأن استخلافهم : إمامتهم العظمى ، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلىّ فى ذلك » ثم قال : « وفى أيام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وبعدهم كانت الفتوح العظيمة ، وتمكين الدين لأهله ، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعلىّ ، فإنهما ـ وإن كانت خلافتهما برضا الصحابة ـ لكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا فسحقا . . كما فى أحاديث عنه صلى الله عليه وسلم أنهما مفتونان ثم يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية :

« **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** »[٤] « أقول : والله أعلم بغيبه : إن أول من كفر بتلك النعمة ، وجحد حقها عثمان ابن عفان ، جعله الناس على أنفسهم وأموالهم فخانهم فى ذلك » . . إلى أن يقول « ونزل : « **واتقوا فتنة** »[٥] بحضرة أبى بكر ، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وعثمان ، وعلى فقال ـ يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ـ لعثمان : « بك تفتح وبك تشب » وقال لعلى : « أنت إمامها وزمامها وقائدها ، تمشى فيها مشى البعير فى قيده » . وقال : « لضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أحد » . وقال : « يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى ألا إن أولياء الله المتقون » اهـ (جـ ١٠ ص ٢٨٠ - ٢٨٣) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية : ٢٣ من سورة الشورى : « **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى** » ما نصه : « . . . فمودة قرابته صلى الله عليه وسلم من لم يبدل منهم ولم يغير مثل : فاطمة وحمزة والعباس وابنه رضى الله عنهم واجبة » ثم ساق روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودتهم ، وعندما فرغ منها قال : لكن المراد بآله الذين لم يبدلوا فخرج على ونحوه ممن بدل . . » . أهـ (جـ ١٢ ص ٢٢٧) .

ولسنا نرى صاحب « هميان الزاد » إلا متجنياً على عثمان وعلىّ رضى الله عنهما فى حملاته ، وما ذكره من الأحاديث فى ذمهما

---

(٤) النور : ٥٥ . (٥) الأنفال : ٢٥ .

صراحة أو تلميحاً ، لا نشك فى أنه مما جرى على ألسن وضّاع الحديث من الخوارج لينصروا بها مذهبهم ، ويُرَوِجوا له بين الناس ، وفضـل عثمان وعلىّ رضى الله عنهما لا يجحد ، وكرامتهما على الله ورسوله لا تنكر ، وفى الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشهد لهما بذلك .

* * *

● الاتجاه المنحرف فى التفسير للصوفية :

وُجدَ التصوّف ـ بمعنى الزهد والتقشف والمبالغة فى العبادة ـ منذ الصدر الأول للإسلام ، ولم يعرف لفظ التصوّف ، ولم تطلق كلمة الصوفية على هؤلاء الزهاد إلا فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وفى هذا القرن تولدت بعض الأبحاث الصوفية ، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها ، وأخذت هذه الأبحـاث والتعاليم تنمو وتتزايد ، كلما تقـادم العهد عليها ، وبمقدار ما يستفيده القوم ممن يتصلون بهم من الفلاسفة وغيرهم .

ولقد كان لبعض المتصوِّفة صلات قوية بالفلاسفة ، واهتمام ظاهر بالنظريات الفلسفية ، حتى وجـدنا من بينهم رجـالا أشبه بالفلاسفة منهم بالصوفية ، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بنظريات فلسفية لا تتفق ومبادىء الشريعة ، ومن هنا كان للمتصوفة فى تصوفهم اتجاهان : اتجاه نظرى يقوم على البحث والدراسة .

واتجاه عملى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى إطاعة الله .

وكان للمتصوفة ـ كغيرهم من طوائف المسلمين ـ دراسـات فى القرآن الكريم ، وكان لهم فى تفسيره مؤلفات حوتها المكتبة

الإسلامية ، بعضها قديم وبعضها حديث ، وكانت دراسات المتصوفة للقرآن ، وشروحهم له عليها طابع التصوف ، فظهر فيها بوضوح أثر التصوف النظرى الذى ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولا ، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

كما ظهر بوضوح ـ أيضاً ـ أثر التصوف العملى الذى يرتكز على رياضة روحية ، يأخذ بها الصوفى نفسه ، حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات إشارات قدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب معارف سبحانية ، يشرح بها كتاب الله عز وجـــل .

وإذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفى نظرى ، وما لهم من تفسير إشارى فيضى ، وجدنا فى هذا أو ذاك اتجاها منحرفا عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم ، فالتفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن ـ فى الغالب ـ عن هدفه الذى يرمى إليه . . يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفى هدفا معينا بأبحاثه ونظرياته ، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد فيأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمى إليه ، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوّفه على حساب القرآن ، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله ، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته ونظرياته التصوفية ، ولم يقدم للقرآن شيئاً إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين ، وإلحاد فى آيات الله .

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى ما يذهب إليه من القول

بوحدة الوجود ، ورأينا غيره كأبي يزيد البسطامى والحلاج ومن على شاكلتهما يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه ، ووحدة الوجود - عندهم - معناها : أنه ليس هناك إلا وجود واحد ، كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله سبحانه هو الموجود بحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام ، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز .

هذا المذهب خوّل لمثل الحلاج أن يقول : أنا الله ، ولمثل ابن عربي أن يقول : إن عجل بني اسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها ، والذى جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان ، وأنه لا فرق بين سماوى وغير سماوى ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .

ولقد وجدنا لابن عربي فى الفتوحات المكية ، وفى نصوص الحكم ، وفى كتاب التفسير المنسوب له أقوالاً فى التفسير بناها على نظريته فى وحدة الوجود ، فمن ذلك أنه فسر قوله تعالى فى الآية : ٢٣ من سورة الإسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . » فقال ما نصه : « . . . فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر ، ونحن نحمله على الحكم كشفاً وهو الصحيح ، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى ، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم ، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم ، ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وإن أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام . . . » أ هـ (من الفتوحات جـ ٣ ص ١١٧) .

ولما فسر قوله تعالى فى الآية : ١٦٣ من سورة البقرة : « **وإلهكم إله واحد** » قال ما نصه : « . . . إن الله تعالى خاطب فى هذه الآية المسلمين . والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله ، فما عبدوا إلا الله ، فلما قالوا : ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلفى فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : إن إلهكم ، والإله الذى يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد ، كأنكم ما اختلفتم فى أحديته . . . » أ هـ (فى الفتوحات جـ ٤ ص ١٦٠ وما بعدها) .

ولما فسر قوله تعالى فى الآيتين : ٨ ، ٩ من سورة المزمل : « **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب** . . . » قال ما نصه : « واذكر ربك الذى هو أنت ، أى اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله ، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها . . . « **رب المشرق والمغرب** » أى الذى ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بإيجادك ، والمغرب : الذى اختفى بوجودك وغربّ نوره فيك واحتجب بك » أ هـ (من تفسير ابن عربى جـ ٢ ص ٣٥٢) .

ومن التفسير الذى تأثر فيه ابن عربى بنظريات الفلاسفة ، ولكنه لا يبلغ فى انحرافه مبلغ ما سبق ، تفسيره لقوله تعالى فى الآية : ٥٧ من سورة مريم ، فى شأن إدريس عليه السلام : « **ورفعناه مكاناً علياً** » وذلك حيث يقول : « وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس وتحته سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة أفلاك ،

وهو الخامس عشر . . » ثم ذكر الأفلاك التى تحت فلك الشمس والتى فوقه ، ثم قال : « وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين كما قال تعالى : « **وأنتم الأعلون والله معكم** »[٦] أ هـ (من النصوص جـ ١ ص ٢٦) .

ومن ذلك أيضاً تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين : ١٩ ، ٢٠ من سورة الرحمن : « **مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان** » حيث يقول : « **مرج البحرين** » : بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح الذى هو العذب الفرات . « **يلتقيان** » : فى الوجود الإنسانى . « **بينهما برزخ** » : هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها ، « **لا يبغيان** » : لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله فى جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء » ا هـ (فى تفسير ابن عربى جـ ٢ ص ٢٨٠) .

وليس من شك فى أن التفسير الذى أقامه ابن عربى على نظرية وحدة الوجود لا يقبل بحال من الأحوال ، لأنه هدم للدين من أساسه .

كما أن التفسير الذى أقامه على نظريات الفلاسفة فى الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجلــه .

---

(٦) محمد : ٣٥

هذه كلمة الحق أقولها فى الاتجاه النظرى للتفسير الصوفى .

أما الاتجاه الإشارى أو الفيضى ، فللقوم فيه جولات وشطحات ، وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه فى التفسير ، وجدنا مستندهم الأول والأهم ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن القرآن له ظاهر وباطن . وعلماء الرسوم ـ فى زعم القوم ـ يفهمون الظاهر فقط ، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه ، وتعلق بالله قلبه ، حتى أصبح يدرك بعين اليقين ما لا يدركه أهل الرسوم بعلم اليقين . ولا نريد أن نناقش القوم فى صحة ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن القرآن له ظاهر وباطن ، ولكن نناقشهم فى معنى الظاهر والباطن ، فهل الظاهر : ما يظهر من معنى النص القرآنى بادى الرأى ، والباطن : ألغاز وأحاجى ومعميات لا يفهمها إلا هم ؟ . . لا ، فالقرآن فوق هذا ، لأن الله يقول فى شأنه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[7] .

ويقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »[8] .

ويقول : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات »[9] .

والذى أدين الله عليه أن ظاهر القرآن ـ وهو المنزل بلسان عربى مبين ـ هو المفهوم العربى المجرد ، وباطنه هو مراد الله تعالى

---

(٧) القمر : ١٧ ، وآيات أخرى . (٨) المائدة : ١٥ .

(٩) البقرة : ٩٩ .

وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب ، وعلى ذلك نقول :

إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر ، وإذن لا يشترط فى فهم ظاهر القرآن الكريم زيادة على الجريان على اللسان العربى ، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى ليس من تفسير القرآن فى شىء . . لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به ، ومن ادعى غير ذلك فهو مبطل فى دعواه .

أما المعنى الباطن فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده ، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير ، ومعنى هذا : أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجاً عن مدلول اللفظ القرآنى . . ولهذا اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين :

أولهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية .

وثانيهما : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

أما الشرط الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا ، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب ، لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه ، وما كان ذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا ، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده

إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما ، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم .

وأما الشرط الثانى : فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر أو كان وله معارض ، صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء[10] .

إذا عرفنا هذا كله ، ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم فى معانى القرآن الباطنة ، وجدنا كثيراً منها من قبيل الباطن الصحيح ، ووجدنا كثيراً منها أيضاً من قبيل الباطن الفاسد المرفوض .

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم فى التفسير ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول : ما قاله سهل التسترى فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية : ٢٢ من سورة البقرة : « **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** » . قال ـ رحمه الله ـ : « **فلا تجعلوا لله أنداداً** » : أى أضدادا ، فأكبر الأضداد ، النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله » أ هـ (من تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٤) .

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة بالسوء داخلة تحت عموم الأنداد ، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أنداداً ، لا صنماً ولا شيطاناً ، ولا النفس ، ولا كذا ، ولا كذا ،

---

(١٠) الموافقات : للشاطبى جـ ٣ ص ٣٩٤ .

وهذا مشكل من حيث الظاهر ، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن ، يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله ، سواء أكان صنماً أم غير صنم ، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم ، ولم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله ، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح ، وبيان ذلك :

إن الناظر فى القرآن الكريم ، قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار ، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية ، لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه ، وسهل التسترى ـ رحمه الله ـ حين قال فى الآية ما قال لم يرد أنه تفسير للآية ، بل أتى بما هو نِدٌّ فى الاعتبار الشرعى ، وذلك لأن حقيقة النِدّ : أنه المضاد لنِدِّهِ ، الجارى على مناقضته ، والنفس الأمارة هذا شأنها ، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها وهذا هو الذى يعنى به النِدّ بالنسبة لنِدِّه ، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه ، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل فى الآية ، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين : جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتباراً ، وجهة كون الخطاب ـ وإن كان موجهاً للمشركين ـ فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار .

أما ما يشهد له من الجهة الأولى : فقوله تعالى فى الآية : ٣١ من سورة التوبة : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** » وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان ، فما حرّموا عليهم حرّموه ، وما أباحوا لهم حللّوه ، وفاتهم أن المُحَلِّل والمُحَرِّم هو

، فقال الله سبحانه « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من الله** » وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه .

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية : فهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية ؟ : « **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا** » وكان هو يعتبر نفسه بها ، مع أن الآية نزلت فى حق الكفار لقوله تعالى فى الآية : ٢٠ من سورة الأحقاف : « **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا** . . » فعمر رضى الله عنه له فى الآية نظر واعتبار ، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه ، حذرا منه وخوفا أن يكون التوسع فى المباحات سببا فى الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها ، فإذا صح لعمر ـ رضى الله عنه ـ أن ينزل الآية على المتوسعين فى المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم ، صح لسهل أيضا أن ينزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك .

مثل هذا التفسير الذى قاله سهل التسترى ـ وهو كثير فى تفاسير الصوفية ـ لانعدم له وجهاً نحمله عليه حتى يكون تفسيراً صحيحاً مقبولاً .

. . . ولكن هناك أقوال لبعض الصوفية فى التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائراً وعاجزاً ، عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة .

فمن ذلك ـ وهو كثير ـ ما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى فى تفسيره ـ : « ألم » فاتحة البقرة . قال : « ألم : قيل : إن الألف ألف الوحدانية . واللام : لام اللطف . والميم : ميم الملك . معناه : من وجدنى على الحقيقة ، بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له . . فأخرجته من رق العبودية إلى الملأ الأعلى ، وهو الاتصال بمالك الملك ، دون الاشتغال بشيء من الملك . . . وقيل : ألم : معنى الألف : أى افرد سرك ، واللام : لين جوارحك لعبادتى . والميم : أقم معى بمحو رسومك وصفاتك ، أزينك بصفات الأنس بى والمشاهدة إياى والقرب منى . . . » أ هـ . (من حقائق التفسير للسلمى ص ٩) .

ولاشك أن مثل هذا التفسير الذى ذكره أبو عبدالرحمن السلمى ، تفسير مشكل ، وأعظم منه إشكالاً ما زعمه بعض القوم من أن هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ترمز إلى أسرار غيبية مكنية ، بل ويدعون ـ أحيانا ـ أن هذه الحروف هى أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة ، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك ، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن ، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل مقنع ، وكل ما أقوله فيها : أنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع على ما وراء حجب الغيب ، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح أن تكون دليلا شرعيا بحال من الأحوال .

وأعجب العجب أن رجالا دخلوا فى التصوف وهم من غير

أهله ، وتظاهروا بالورع والطاعة ، وتحلوا بالزهد الكاذب والورع المصطنع ، وكان لهؤلاء ـ على فرط جهلهم ـ محاولات فى التفسير لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع ، ولا يمكن بأى حال أن يتحملها النص القرآنى الكريم .

فمن ذلك الهراء : ما نقله السيوطى فى الإتقان (جـ ٢ ص ١٨٤) عن بعض جهلة المتصوفة أنه فسر قوله تعالى فى الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة : « **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** » فقال : معناه : « من ذل » من الذل « ذى » إشارة إلى النفس ، « يشف » من الشفاء « ع » من الوعى .

ومن ذلك أيضا ما نقل عن بعضهم أنه فسر قوله تعالى فى الآية : ٦٩ من سورة العنكبوت : « **وإن الله لمع المحسنين** » فجعل « لمع » فعلا ماضيا بمعنى أضاء و « المحسنين » مفعوله .

ولا شك أن هذا التفسير وأمثاله إلحاد فى آيات الله ، وقائلوه محرفون للكلم عن مواضعه ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

***

مع أصحاب التفسير العلمى

● الاتجاه المنحرف فى التفسير لمن يدعون أن القرآن حوى جميع العلوم الكونية جملة وتفصيلا :

وجد من العلماء قديما وحديثا من تكلم فى تفسير القرآن الكريم على أساس أنه حوى إلى جانب العلوم الدينية سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها ، وكان من نتيجة ذلك أنهم حكموا الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن الكريم ، وحاولوا جادين أن يستخرجوا كل علوم الكون من بين نصوصه ، بل وزعموا أن كل ما يجد من علوم إلى يوم القيامة قد حواها القرآن ويمكن استنباطها منه .

ويظهر لنا أن الإمام الغزالى - إلى عهده - هو أبرز من اتجه هذا الاتجاه فى تفسير القرآن الكريم ، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية .

وإذا ما رجعنا إلى كتاب « الإحياء » نجد الغزالى - رحمه الله - يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل ، وفيه ينقل عن بعض العلماء : « أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف ، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن ، وحد ومطلع » . ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه

أنه قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن » . .

ثم يستطرد فيقول « إن كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ، فى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها »[1].

كذلك نجد الغزالى فى كتابه « جوهر القرآن » يعقد الفصل الرابع منه لكيفية إنشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن ، ثم يعقد الفصل الخامس لكيفية إنشعاب سائر العلوم من القرآن أيضا . . ثم يذكر علوما عدة ، ويذكر من الآيات القرآنية . ما يحوى بعض هذه العلوم كنموذج على ما يدعيه ، ثم ينهى بحثه بقوله : « فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين »[2] .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمى - تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا ، ولوجدنا أنها بدأت على هيئة محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وما جد من العلوم ، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالى ، ومن سلك مسلكه من العلماء ، ثم طبقت الفكرة علمياً وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى ضمن تفسيره للقرآن ، ثم جدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم . . وأخيراً راجت هذه الفكرة فى العصر الحاضر الذى يعنى المثقفين والعلماء رواجاً عظيماً نتج عنه مؤلفات

---

(١) الإحياء جـ ٣ ص ١٣٥ . (٢) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ .

كثيرة وتفاسير واسعة تسير على ضوء هذه الفكرة .

على أن هذه الفكرة لقيت من جانب بعض آخر من المثقفين وعلماء المسلمين قديما وحديثا معارضة شديدة . والشاطبى ـ رحمه الله ـ أبرز من ظهر فى محيط العلماء قديما بمعارضة أصحاب هذه الفكرة فى التفسير ، وفى كتابه الموافقات يقول ما نصه : « . . . إن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين » ويقول : « . . إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم فى شئ من هذا المدعى . . ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة إلا أن ذلك لم يكن فدل ذلك على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ مما زعموا . . »[٣] .

ولقد أبطل الشاطبى بأسلوب علمى واضح مذهب مخالفيه ، وأقام الأدلة على مذهبه ، واعتقادى أن الحق فى جانب الشاطبى ، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مذهبه أدلة قوية لا يعتريها ضعف ولا يتطرق إليها خلل ، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم ، ولا يبقى معها مدعاهم ، وبمراجعة « الموافقات » والاطلاع على ما فيها من ذلك لا يسع المنصف إلا أن يقول : إن الحق مع الشاطبى .

وإذا ما أردنا أن نستعرض بعض الأمثلة للتفسير العلمى

---

(٣) انظر : الموافقات جـ ٢ ص ٦٩ ـ ٨٢ .

حتى نقف على مبلغ تسلط هذه الفكرة على عقول أصحابها ، وحتى يتضح لنا أنها فكرة تخرج بالقرآن الكريم عن اتجاهه السوى الصحيح إلى اتجاه منحرف سقيم ، فأولى بنا أن نذكر بعض ما ورد فى ذلك عن المتقدمين ، وبعض ما ورد عن المتأخرين حتى يتبين أن أصحاب هذه الفكرة يسيرون على نمط واحد ، لا فرق بين قدامى ومحدثين .

فمن أمثلة ما ورد عن المتقدمين : ما ذكره الجلال السيوطى عن أبى الفضل المرسى من أن علم الهندسة موجود فى قوله تعالى فى الآية : ٣٠ من سورة المرسلات : « **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب** » قال : فإن فيه قاعدة هندسية ، وهى أن الشكل المثلث لا ظل له .

ومنها ما ذكره السيوطى عن أبى الفضل المرسى أيضا من أن الجبر والمقابلة قيل : أنهما مأخوذان من أوائل السور ، فإن فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة ، وأن فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروب بعضها فى بعض .

ومنها ما ذكره السيوطى عن بعض العلماء : أنه استنبط أن عمر النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله تعالى فى الآية : ١١ من سورة المنافقون : « **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها** » فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده[٤] .

---

(٤) انظر : الإكليل ص ٢ ، والإتقان جـ ٢ ص ١٢٦ .

ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين : ما قاله المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » من أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة فى غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ، وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : « **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** »[٥] .

وكشفوا أن التغير الكيماوى بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول : « **وكل شئ عنده بمقدار** »[٦] .

. . وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى والقرآن يقول : « **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً** »[٧] . . إلى آخر ما ذكره من ذلك .

ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين أيضا ما قاله المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه « الإسلام والطب الحديث » عندما عرض لقوله تعالى فى الآية ٢٢ من سورة البقرة :

---

(٥) فصلت : ١١ .　　　(٦) الرعد : ٨ .

(٧) الفرقـان : ٤٥ .

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » تحت عنوان « الحياة تحت ضوء القرآن » وفيه يقول :

« . . . . هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ (تأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان . . إلخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة ، وليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع ، لأن هذا يجب أن لا يكون سبباً مهماً للأفضلية . . » ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة المواد الزلالية ، ثم يقول « وقد اهتدت أخيراً لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها ، وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالى :

لحوم ١٠٤ ، لبن بقر ١٠٠ ، أرز ٨٨ ، بطاطس ٧٩ ، فول ٧٠ ، دقيق ٤٠ ، ذرة ٣٠ .

ثم يقول : إن النتيجة التى لخصها القرآن الشريف (وأعجب لقوله لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما نجده فى كتاب « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ـ وهو أبرز من عرفناه من المحدثين يتعصب لهذا اللون فى التفسير من قوله عند تفسير للآية ٦١ من سورة البقرة : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها

وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، **قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . . »** : « الفوائد الطبية فى هذه الآية » . . ثم يأخذ فى بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية ، ويذكر مناهج أطباء أوربا فى الطب ، ثم يقول : أو ليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن ، أوليس قوله : « **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير** » رمزا لذلك ، كأنه يقول : المعيشة البدوية على المن والسلوى . . وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما ، مع الهواء النقى والحياة الحرة أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم ، والإكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك فتخطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون . بمثل هذا تفسر هذه الآيات ، بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله . . . » أ هـ (جـ ١ ص ٦٦ - ٦٧) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات : ٦٧ وما بعدها من سورة البقرة : « **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** . . . » الخ القصة . نجده يعقد بحثا فى عجائب القرآن وغرائبه فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب ، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول : « . . . وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه . إن هذه الآية تتلى ، والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوربا ثانيا . . . » ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم . . ثم قال : « ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسألة الطير

وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص ، على قدم الأنبياء والمرسلين ، كالعزير وإبراهيم وموسى ، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم ، فقلت : فبهداهم اقتده . . . » أهـ (جـ ١ ص ٦٦ - ٦٧) .

ولست أشك فى أن مثل هذا التفسير خروج بالقرآن عن قصده وانحراف به عن هدفه ، فالقرآن لم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء ، وعالم الأرواح وكيفية تحضيرها . . لا بل هو كتاب هداية يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وحينما يقول الله فى شأنه : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** »[٨] لا يقصد بذلك أنه حوى كل العلوم جملة وتفصيلا ، وإنما يريد أنه جعله مشتملا على أصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته والعمل به ، ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا ، وأنه ترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى يعيشون فيه .

---

(٨) الأنعام : ٣٨ .

وإذا كان أرباب هذا الاتجاه العلمى فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن الكريم من حقائق الكون ومشاهده ، ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثها فى الآفاق وفى أنفسهم . . وإذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين ، فهم مخطئون ولا شك ، وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده ، ودعوته إلى المنظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم ، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة ، ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته ، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين ، فليس القرآن ـ كما قلنا ـ كتاب فلسفة أو طب أو هندسة . وليعلم أصحاب هذا الاتجاه فى التفسير أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ورياضة النفس والرجوع بها إلى الله تعالى .

وليعلم أصحاب هذا الاتجاه المنحرف فى تفسير كتاب الله أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا يسلكوا هذا المسلك فى تفسيره رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى ، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد وما يجد من نظريات وقوانين علمية تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح .

مع مدعى التجديد

● الاتجاه المنحرف فى التفسير لبعض من يدعون التجديد من المحدثين :

منى الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له ، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد وطرق الهدم ، وكان من أهم الأبواب التى طرقوها ليصلوا بها إلى نواياهم السيئة : تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة تتنافى مع ما فى القرآن من هداية ، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء ، وتهدف إلى ما سولته لهم أنفسهم من نحل خاسرة وأهواء .

منى الإسلام بهذا من أيامه الأولى ، ومنى بمثل هذا فى أحدث عصوره ، فظهر فى هذا القرن أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله ، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم ، ويقضى حاجات فى نفوسهم ، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة ، ومزاعم باطلة ، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة ، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم .

ولقد اندفع هؤلاء النفر من المضللة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة فى القرآن بعوامل مختلفة : فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله تعالى سبب لظهوره وشهرته فى المحيط العلمى ، فذهب يفسر كتاب الله تفسيرا لا تقره لغة القرآن

ولا يتفق مع قواعد الدين العامة

ومنهم من تلقى من العلم حظا يسيرا لا يرقى به إلى مستوى العلماء . . ولكنه اغتر بما لديه فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين فى العلم ، ونسى أنه قل فى علم اللغة نصيبه ، وخف فى علم الشريعة وزنه ، فراح ينظر فى كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير ، ثم أخذ يهذى بأفكار فاسدة تتنافى مع ما قرره علماء اللغة وأئمة الدين ، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تقوم على حجة ولا ترتكز على دليل .

ولقد حسب هؤلاء وهؤلاء أنهم أرضوا ضمائرهم وأنصفوا البحث الحر ، وخلصوا القرآن من جمود المفسرين الذى وقف - كما يزعمون - حجر عثرة فى سبيل من أرادوا الدخول فى الإسلام .

ولو ذهبنا نستعرض أقوال هؤلاء النفر فى التفسير ، لخرجنا بكثير من الأمثلة الدالة على إنحرافهم وتحريفهم لكتاب الله سبحانه .

فمن ذلك ما نجده لبعض من دفعهم حب التجديد إلى أن يسايروا روح الإلحاد ، ويجاروا من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة فى أحكامها وحدودها ، من تأويله لآيات الحدود على غير تأويلها . فحمل الأمر فيها على الإباحة ، وجعل الحدود مفوضة إلى ولى الأمر ، إن شاء أقامها ، وإن شاء لم يقمها ، وذلك حيث عرض فى مقال كتبه تحت عنوان « التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى »[1] فقال بعد مقدمة طويلة : « . . . ولكن

(١) نشر هذا المقال فى السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٢٠ فبراير ١٩٣٧) .

يبقى بعد هذا فى تلك الحدود ذلك الأمر الذى سنثيره فيها ، ليبحث فى هدوء وسكون ، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد . . وسأقتصر فى ذلك ـ الآن ـ على ذكر ما ورد فى تلك الحدود من النصوص القرآنية ، وذلك قوله تعالى فى حد السرقة : « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم** »[٢] .

وقوله تعالى فى حد الزنا : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** »[٣] فهل لنا أن نجتهد فى الأمر الوارد فى حد السرقة وهو قوله تعالى : « **فاقطعوا** » والأمر الوارد فى حد الزنا وهو قوله تعالى : « **فاجلدوا** » فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب ؟ ويكون الأمر فيهما مثل الأمر فى قوله تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** »[٤] فلا يكون قطع يد السارق حداً مفروضاً لا يجوز العدول عنه فى بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة ، ويكون شأنه فى ذلك شأن كل المباحات التى تخضع لتصرفات ولى الأمر ، وتقبل التأثير بظروف كل زمان ومكان ، وهكذا الأمر فى حد الزنا

---

(٢) المائدة : ٣٨ ، ٣٩ . (٣) النور : ٢ .

(٤) الأعراف : ٣١ .

سواء أكان رجما أم جلدا ، مع مراعاة أن الرجم فى الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج لعدم النص عليه فى القرآن الكريم ؟ ، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى مع أننا فى هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصاً ، ولا ألغينا حداً ، وإنما وسعنا الأمر توسيعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان ، وبما عرف منها من إيثار التيسير على التعسير ، والتخفيف على التشديد ، . . » أ هـ .

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله ، إذ أول آية السرقة وآية الزنا تأويلا غير مقبول ، واتجه فى فهمه لصيغة الأمر فيهما إتجاهاً منحرفاً لا يقوله إلا من أهدر دلائل القرآن والسنة ، ومن له أدنى دراية بفهم النصوص والناظر فى آية السرقة وآية الزنا ، لا يمكن أن يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب ، وليس لأحد أن يعدل عن ذلك مطلقا ، وذلك لأن بناء الأمر بالقطع فى آية السرقة على قوله : «**والسارق والسارقة** » وبناء الأمر بالجلد فى آية الزنا على قوله : « **الزانية والزانى** » يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب ، وهذا لأن تعليق الحكم على شخص موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضى للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص ، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنا ، ووضع الشارع لهما حكما فى صيغة الأمر ولم يذكر حكما غيره ، لا يصح أن يقال : إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر فى قوله : « **خذوا زينتكم عند كل مسجد** » . . الآية .

ثم إن قوله تعالى : فى آية السرقة : « **جزاء بما كسبا نكالاً من الله** » وقوله فى آية الزنا : « **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** » وقوله : « **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** » يؤكد أن الأمر فى الآيتين للوجوب لا للإباحة .

على أن هناك من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب فى الآيتين . . فهل يجوز بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود متهجم مغرض بمثل هذا التأويل الذى تنكره اللغة ، ولا تقره السنة ، ولا يتفق وحكمة التشريع ؟!

ومن هذا التفسير المنحرف أيضا ما جاء فى كتاب « الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن » ، للشيخ أبى زيد الدمنهورى ، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى فى المحيط العلمى ، وثورة ساخطة من شيوخ الأزهر الشريف على مؤلفه ، وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال .

ومن أمثلة ما جاء فى هذا التفسير ما يلى :

عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية ٤٩ من سورة آل عمران ، فى شأن عيسى عليه السلام : « . . . **أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** .» نجده يقول ما نصه : « كهيئة الطير » يفيدك

التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهالة وظلماتها إلى خفة العلم ونوره : « **الأكمه** » من ليس عنده نظر : « **الأبرص** » المتلون بما يشوه الفطرة ، فهل عيسى يبرىء هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطبية ؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية ؟ : « **فى بيوتكم** » يعلمكم التدبير المنزلى . أ هـ (ص ٤٥) .

وإذا كان المؤلف قد تردد فى معنى إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسمانى بالأعمال الطبية ، وتكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية ، فإنه ليس تردد الشاك فى أى الأمرين كان ، وإنما هو يبدو منه فى وضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحى لا غير ، ولقد صرح بذلك عندما عرض لقوله تعالى فى الآية ١١٠ من سورة المائدة : « . . . **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى** » . . . الخ ، وذلك حيث يقول : « . . : من هذا تعرف أن عيسى نبى أرسله الله إلى بنى إسرائيل ليشفى نفوسهم ، ويحيى موات قلوبهم ، فآيته فى دعوته وسيرته وهدايته ، عاش ومات كغيره من الأنبياء فى بشريته ، فلم يكن خارقا فى سنته ، ولا ممتازا بما يدعو إلى ألوهيته وعبادته » أ هـ (ص ٩٧) .

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية ٧٩ من سورة الأنبياء : « . . **وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين** » يقول ما نصه : « **يسبحن** » يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التى كان يسخرها داوود فى صناعته الحربية ، « **والطير** » : يطلق على

كل ذى جناح ، وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية » أ هـ (ص ٢٥٧) .

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية ٨١ من سورة الأنبياء « . . . **ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها** . . . » يقول ما نصه : « تجرى بأمره: الآن تجرى بأمر الدول الأوربية واشاراتها فى التلغراف والتليفونات الهوائية » أ هـ (ص ٢٥٧) .

وليس من شك فى أن هذا ومثله مما قاله فى معجزات الأنبياء إبطال لها من أساسها وفى بعض كلامه ما يصرح بأن بعض ما ذكره القرآن منها ـ على تأويله الذى تأوله ـ حاصل اليوم فى أيدى دول الغرب التى استغلت الريح وسخرته فى كثير من وسائل مراسلاتها ومواصلاتها . وهذا بلا شك خروج صريح عن مدلولات النصوص القرآنية ، وإلحاد فى آيات الله سبحانه .

وفى الرجوع إلى الكتاب(٥) ما يكفينا عن سرد ما للمؤلف من ترهات وضلالات ، وفى الاطلاع على قرار اللجنة الأزهرية التى ألفت للرد عليه ما يغنينا عن تزييف ترهاته وإبطال ضلالاته ، وجزى الله شيوخنا الأجلة وعلماءنا الأعلام خير الجزاء على ما بذلوه من الدفاع عن دينهم ، والذب عن كتاب ربهم .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(٥) الكتاب موجود فى دار الكتب المصرية ويمكن استعارته بإذن خاص لأنه مصادر وممنوع تداوله

وبعد . . فلهذا الكتاب قصة

لقد نشرت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية كتابا بعنوان « بدع التفاسير فى الماضى والحاضر» للدكتور رمزى نعناعة

وقد اطلعت على هذا الكتاب ، فأدهشنى أنه بكل ما يشتمل عليه من مادة علمية ، وبكل ما فيه من تنسيق ، وترتيب ، ونقط ، وفواصل ، وعلامات استفهام ، وتعجب وتأثر ، نسخة طبق الأصل ـ وكأنها مصورة ـ من بحث كتبته ونسختة على الآلة الكاتبة سنة ١٩٦٦ تحت عنوان : « الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم : دوافعها ودفعها » .

وكنت أعرت نسخة من هذا البحث للدكتور رمزى نعناعة ليرجع إليها ويستعين بها وهو يعد رسالته للدكتوراة التى كنت مشرفا عليه فى تحضيرها ، وقد تبين لى الآن أنه نسخ بحثى قبل أن يعيده إلى ، ويظهر أنه ـ فى عجلة النسخ ـ نسى مقالة بأكملها ، هى : الاتجاه المنحرف فى تفسير الصوفية ، فجاء كتابه الذى يدعيه خاليا منها .

ولا أريد أن أسرد كل الأدلة التى تثبت صدق ما أقول ، ولكنى أقتصر الآن على بعضها :

١ ـ فى هامش ص ٢١٤ من الرسالة التى تقدم بها الدكتور

رمزى نعناعة للحصول على الدكتوراة وعنوانها « الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير » ـ نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة وتوجد بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة ـ جعل الدكتور رمزى من مراجعه الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم وقال بالنص : « انظر الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم ص ١٩ نسخة مخطوطة للشيخ الذهبى » .

٢ ـ قدم الدكتور رمزى كتابه بنفس ما قدمت به بحثى ، فذكر ـ كما ذكرت ـ أن الكتاب يشتمل على مقدمة وتسع مقالات ، وغفل عن أنه لم يذكر سوى ثمان مقالات ، وذلك يدل على أنه لم يحاول أن يبذل جهداً قط أكثر من مجرد النسخ ، وإلا ما وقع فى هذا المأزق . وقد سلمت المقالة التاسعة[1] لمجلة الوعى الإسلامى لتنشرها كدليل على ما أقول .

٣ ـ أن بحثى الذى انتحله الدكتور رمزى لنفسه أخذت معظم مادته العلمية بأسلوبها من كتابى « التفسير والمفسرون » المطبوع سنة ١٩٦٢ ، ولم أرد أن أنشر البحث على هذا النحو ، لأنه كان فى تقديرى أن أعيد مراجعته وأستكمل موضوعه ، ثم أنشره بعد ذلك منقحا مستوعبا إذا وفقنى الله لذلك وأعاننى عليه .

ولأن بحثى لم يطبع ولم ينشر ، ويعلم الدكتور رمزى أنى لا أنوى نشره على هذه الحال ، تجرأ فانتحله لنفسه ، وخدع وزارة الأوقاف الأردنية فقامت بطبعه ونشره ، واستحل كل هذا الغش

---

(١) ترتيبها فى بحثى : السابعة .

والخداع وهو مطمئن إلى أن أمره سوف لا ينكشف ، ولكنه كان سيىء الحظ ، فالبحث ـ كما قلت ـ أخذت معظمه من كتابى « التفسير والمفسرون » ولو كلف الدكتور رمزى نفسه أن يرجع إليه ما وقع فى هذه الورطة التى لا خلاص له منها ! .

٤ ـ فى بحثى خطأ تنبهت له فيما بعد : خطأ فى النقل وقع منى سهواً ، وذلك عند الكلام عن تفسير القرآن للسيد عبدالله العلوى ، فقد ذكرت أنه توفى سنة ١١٨٨ هجرية والصواب أنه ولد سنة ١١٨٨ هـ وتوفى سنة ١٢٤٢ هـ وقد تابعنى الدكتور رمزى على هذا الخطأ فى ص ٥٧ من « بدع التفاسير » ولو كلف الدكتور رمزى نفسه أن يرجع إلى الأصل الذى أخذت منه وهو « التفسير والمفسرون » جـ ٢ ص ١٨٦ ما وقع فيما وقعت أنا فيه .

وخطأ آخر فكرى تابعنى الدكتور رمزى عليه فى ص (٦٨ ـ ٦٩) من « بدع التفاسير » ، وقد يدعى ـ مكابرة ـ أن الخطأ وقع منه وأنا الذى تابعته عليه ، ولكن هذا الخطأ ـ لسوء حظه أيضا ـ موجود فى كتابى « التفسير والمفسرون » وعلى وجه التحديد فى ص (٣٢٢) من الجزء الثانى ، عند الكلام عن كتاب « هميان الزاد إلى دار المعاد » للمفسر الاباضى : محمد بن يوسف أطفيش ، ولعله يستطيع أن يهتدى إليه بعد هذا التحديد .

٥ ـ ذكرت فى بحثى بعض الآراء المنحرفة فى التفسير دون أن أنسبها لقائليها ، وذلك لاعتبارات خاصة اقتضت ذلك فى حينه ، وقد نقلها هو ـ أيضا ـ دون عزو منه ، وليس لديه سبب يقتضى إهمال العزو ، اللهم إلا عدم معرفته لأسمائهم ، وإذا كان يعرفها

فليسارع ـ مشكورا ـ بذكرها .

٦ ـ عنونت لبحثى بعنوان « الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم : دوافعها ودفعها » وقدمته للقراء بمقدمة تتلاءم مع العنوان ، وعنونت لكل مقالة بعنوان ملائم أيضا ، فجاء الدكتور رمزى بكل سذاجة فغير عنوان البحث إلى « بدع التفاسير فى الماضى والحاضر » وأبقى ـ فى بلاهة علمية ـ المقدمة[٢] وعناوين المقالات على ما هى عليه ، ولولا هذه البلاهة لقدم الكتاب وعنون لمقالاته بما يتلاءم مع اسمه الذى اختاره له ، فكان يقول ، مثلا : بدع التفسير عند المعتزلة . . . بدع التفسير عند الخوارج . . وهكذا !

٧ ـ ليس للدكتور رمزى من عمل فى كتابه الذى يدعيه إلا عبارة واحدة وضعها فى هامش ص ٨٢ يحيل فيها على مقال للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، نشرته مجلة الوعى الإسلامى فى العدد ٦٢ سنة ١٩٧٠ ، وليته لم يكلف نفسه كتابة هذا الهامش الذى هو كل مجهوده فى كتاب « بدع التفاسير » والذى أرى أنه أوقعه فى ورطة لا أظنه يحسن الخلاص منها :

ذلك أنه يشير بهذا الهامش إلى مقالات الدكتور مصطفى محمود التى نشرها فى مجلة « صباح الخير » المصرية تحت عنوان « محاولة لتفسير عصرى للقرآن » وهو يرمى من وراء هذا إلى أن يوهم القراء بأن الكتاب ـ فى عالم التأليف ـ جديد كل الجدة ، حتى أنه

(٢) عنون الدكتور رمزى للمقدمة بعنوان «بيان من المؤلف» وليس فيه كلمة واحدة من مادة «بدع» بل ولا تكاد توجد كلمة تدور حول هذه المادة فى كتاب «بدع التفاسير» إلا نادرا .

ليتناول أحدث ما قيل من بدع التفسير ! . . وأقول له : ليتك لم تورط نفسك وتلقى بها فى هذا المأزق الحرج ، فعنوان الكتاب « بدع التفاسير فى الماضى والحاضر » ، وكنا ننتظر منك ـ لو كنت صادقا مع نفسك ومع قرائك إن كان لك قراء ـ أن تعرض لأحدث بدع التفسير ـ وما أكثرها ـ لا أن تكتفى بنقل آراء نقلتها أنا عن قائليها فى كتاب « التفسير والمفسرون » من ربع قرن مضى يوم أن تقدمت به للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن الكريم .

وأقل ما كان ينتظر منك : أن تعرض لآراء الدكتور مصطفى محمود ، وأنت حديث عهد بها وعلى ذكر منها ، ثم تعقب عليها بما يبين زيفها وفسادها ، وبهذا تكون قد جئتنا بجديد يسرنا أن تكون أنت صاحبه .

. . . وبعد ، فأصل بحثى بين يدى الآن فى الكويت ، ومنه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة فى مكتبتى الخاصة بالقاهرة ، وإذا لم يكن ميسوراً لكل قارىء أن يرجع إلى بحثى الذى لم ينشر ، فمن الميسور جداً أن يرجع إلى كتابى « التفسير والمفسرون » ويقارن ما فيه بما فى كتاب « بدع التفاسير » فى المواضيع الآتية :

الموضوع . وصدر بعض فقراته	أرقام الصفحات فى بدع التفاسير	أرقامها فى التفسير والمفسرون
المقدمة ـ مرحلة الرواية :		
نزل القرآن الكريم . . الخ	١٢ ـ ١٣	٣٢ ـ ٣٣ جـ ١
ولقد اختلف العلماء . . الخ	١٣	٤٩ جـ ١
والذى تميل إليه النفس . . الخ	١٤	٥٣ ـ ٥٤ - ١

الموضوع وصدر بعض فقراته	أرقام الصفحات في بدع التفاسير	أرقامها في التفسير والمفسرون
مرحلة التدوين ..	١٦ - ١٩	١٤١ - ١٤٩ جـ ١
وإذا أردنا أن نرجع الخطأ . الخ	٢١ - ٢٥	٢٨١ - ٢٨٤ جـ ١
المقالة الأولى :		
وإذا نحن أجلنا النظر .. الخ	٢٧ - ٢٨	١٦٧ - ١٦٨ جـ ١
لا . فقد جاء عهد التابعين .. الخ	٢٠	الفقرة الأخيرة من ١٧٥ جـ ١
المقالة الثانية :		
كتبتها في بحثي ولم يكن لها أصل في «التفسير والمفسرون».		
المقالة الثالثة :		
فمن ذلك ما نقله ابن قتيبة . الخ	٤٥ - ٤٧	٣٧٩ - ٣٨٠ جـ ١
ومن الأمثلة التي ترجع إلى الجهل بتصريف الكلمة .. الخ	٤٧ - ٤٨	٢٢٦ جـ ١ مع الهامش رقم ٢
المقالة الرابعة :		
فمن ذلك أنهم فسروا .. الخ	٥٠ - ٥١	٤٠٥ - ٤٠٦، ٤٤٦ جـ ١
ومن أمثلة الاتجاه المنحرف للمعتزلة .. الخ	٥٣	٣٩٦ جـ ١

الموضوع وصدر بعض فقراته	أرقام الصفحات فى بدع التفاسير	أرقامها فى التفسير والمفسرون
المقالة الخامسة :		
وللإمامية الاثنى عشرية تعاليم ..	٥٦ ـ ٥٧	٨ ـ ٩ جـ ٢
فمثلا كتاب تفسير القرآن للسيد عبدالله العلوى .. الخ	٥٧ ـ ٥٨	١٨٨ ـ جـ ٢
وفى تفسير الطبرسى ... الخ	٥٩	١١٠ جـ ٢
وفى الصافى لملامحسن الكاشى .. الخ	٦٢	١٧٣ جـ ٢
وفى التفسير المنسوب الى الحسن العسكرى .. الخ	٦٢	٩٦ جـ ٢
ومما لا ينقضى منه العجب . الخ	٦٣	٧٣ جـ ٢
المقالة السادسة :		
ودب الخلاف بين الخوارج . الخ	٦٥	٣٠١ ـ ٣٠٢ جـ ٢
والذى يقرأ ما ينقل عن الخوارج .. الخ	٦٦ ـ ٦٧	٣٠٥ ـ ٣٠٧ جـ ٢
لا .. فلا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات .. الخ	٦٧	الفقرة الأخيرة من ٣٠٧ جـ ٢
جاء فى كتاب التفسير المسمى هميان الزاد .. الخ	٦٨ ـ ٦٩	٣٣٢ ـ جـ ٢
ثم ان صاحب هميان الزاد ..	٧١	٣٢٢ ـ ٣٢٣ جـ ٢

الموضوع وصدر بعض فقراته	أرقام الصفحات فى بدع التفاسير	أرقامها فى التفسير والمفسرون
المقالة السابعة :		
وإذا ما رجعنا إلى كتاب الإحياء للغزالى .. الخ	٧٣ - ٧٤	١٤٠ - ١٤١ جـ ٣
على أن هذه الفكرة لقيت .. الخ	٧٥	١٥٤ جـ ٣
فمن أمثلة ما ورد عن المتقدمين .. الخ .	٧٦	١٤٧ - ١٤٨ جـ ٣
ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين .. الخ	٧٧	١٦٤ جـ ٣
وكشفوا عن التغيير الكيمائى الخ	٧٧	١٦٥ جـ ٣
وكشفوا عن طريقة إمساك الظل .. الخ	٧٧	١٦٦ جـ ٣
المقالة الثامنة :		
منى الإسلام من زمن بعيد .. الخ	٨٢ - ٨٣	١٨٨ - ١٨٩ جـ ٣
فمن ذلك ما نجده .. الخ	٨٣ - ٨٥	١٩٤ - ١٩٦ جـ ٣
فأنت ترى من هذا المقال .. الخ	٨٥ - ٨٦	١٩٦ جـ ٣
ومن أمثلة ما جاء فى هذا التفسير .. الخ	٨٦ - ٨٨	٢٠١ - ٢٠٢ جـ ٣
وعندما عرض لقوله تعالى ..	٨٨	الفقرة الثالثة ٢٠٤ جـ ٣

***

واذا كان بحثى الذى سرقه الدكتور رمزى وادعاه لنفسه قد طبعه فى ثمانين صفحة ، فان ما نقلته منه عن كتابى «التفسير والمفسرون» كأساس أبنى عليه ، قد وصل الى نحو ستين صفحة ، والباقى هو الذى كنت زدته تمهيدا لتكملته ونشره ، وحالت ظروف وجودى فى الكويت دون ذلك ، وهذه حقيقة لا يعلمها الدكتور رمزى ولو علمها لما أقدم على نشر هذا البحث منسوبا لنفسه .

محمد حسين الذهبى

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الايداع - ٥٥٢٦ / ٨٥
الترقيم الدولى ٣ - ٠٦٠ - ٣٠٧ - ٩٧٧

هــذا الكتــاب

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أُم الكتاب وأخرُ متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلهِ ، وما يعلمُ تأويلهُ إلاَّ الله ، والراسخونَ فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ، وما يذكُرُ إلاّ أولوا الألباب » [قرآن كريم]

● إن البعض منا يحمّل لكتب التفسير شئ من القداسة . وينسى أن المفسرين بشرٌ غير معصومين . . وأن بعض ـ التفاسير ـ كانت مرتعاً خصباً لاحتواء الأراء التى تتعصب للطائفية والمذهبية . . فما هى تلك التفاسير . . ؟ وما هى هذه الأراء . . وما دوافِعُها . . ؟

● وهذا الكتاب « الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم » يوضح لنا . . « تدرج التفسير فى مرحلتيه » . . ثم . . « مبدأ ظهور الإنحراف » والعوامل التى أدت اليه عند « القصاصين . . والنحويين . . والمعتزلة . . والشيعة . . والخوارج . . والصوفية . . وغيرهم » . . مع ذكر صاحب الرأى . . وكتابه . . والرد عليه . .

● ومؤلف الكتاب ـ المرحوم ـ الدكتور محمد حسين الذهبى ـ صاحب كتاب « التفسير والمفسرون » والذى أثرى المكتبة الاسلامية ـ بعلمه الغزير ـ والذي أستشهد ـ لجرأته بالجهر بكلمة الحق ـ لا يخشى إلاّ الله ـ يكشف لنا حقائق هذا الموضوع . . دون خوف . . أو تحامل . . أو مجاملة .

● ومكتبة وهبة ـ يسعدها أنها صارت صاحبة الحق « الوحيدة » فى نشر جميع مؤلفات ـ المرحوم الشهيد ـ ويسرها أن تنشر هذا الكتاب لتعرف الأمة الإسلامية « الإتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم ـ دوافِعُها . . ودَفْعُها ـ وبالله التوفيق . .

